AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01109 7940

سلمى الحفار الكزبرى

حِرْمَان

قصص موضوعة ومعرّبة

قدم لها

الأستاذ شفيق جبرى

عميد كلية الآداب بدمشق

دار المعارف بمصر

Library of
merican University
at Cairo

ppy is the man that
deth wisdom and
e man that getteth
understanding

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
James Polk McKinney
Pittsburgh, Pennsylvania

03-85352
Pt Rs 29

حِرْمَانٍ

قصص موضوعة ومعرّبة

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

سلمى الحفار الكزبرى

PJ
7842
U9
H5X
1951

حِرْمَان

قصص موضوعة ومعرّبة

قدم لها

الأستاذ شفيق جبرى
عميد كلية الآداب بدمشق

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

892.73
Sa35s

٨١٢٫٠٨
ع.ى.ل

31093

الإهـــداء

إلى ولدىّ الحبيبين

نزيه و ندى

أهدى هذه القصص لعلهما يجدان فيها بعض المتعة وشيئاً من العبر . . .

سلمى

فهرس

صفحة

المقدمة — بقلم الأستاذ شفيق جبرى ٩
والأذن تعشق ١٧
الدار — وضع أندريه موروا ٢٦
ثلاثة أيام ٣٠
الانتظار — وضع جى دوموباسان ٣٩
أقنعة سوداء — وضع أندريه موروا ٤٧
قصة الغرفة رقم ٢١٦ . . . . . ٥٣
حرمان ٦٥
الغفران — وضع جى دوموباسان ٨٠
لقاء ٨٩
ثوب السهرة — وضع إدمون سعد ٩٥
العباءة — وضع أندريه موروا ١٠٤
بلا أمل ١٠٨
احتيال ١١٧
بعد عشر سنين — وضع أندريه موروا ١٢٧

المقدمة

بقلم الأستاذ شفيق جبرى
شاعر الشام وعميد كلية
الآداب بدمشق

انطلقت نحو القرية التى تعودت أن أقضى فيها آخر يوم من أيام الأسبوع ، وكان ذلك فى خميس من أخمساء كانون الأول ، تركت السماء فى دمشق صافية لا غيم فيها وظننت أن هذا الصفاء سأنعم به فى القرية فلما — وصلت لى بلودان استرحت قليلا فى دارى حتى هجم علىّ الليل فنزل رذاذ من المطر ثم عصفت الرياح فعلمت أن السماء مثلجة ولا ريب فنمت وكنت أشعر فى الليل بكثير من البرد فلما طلع الصباح رفعت الستارة عن الشباك وإذا القرية كلها بيضاء من الثلج ، دورها بيض وجبالها بيض وشجرها أبيض والهدوء يعمّها كلها فلا كلب ينبح ولا حمار ينهق ولا غراب ينعب ولا ديك يصيح ولا بقرة تجأر وأهل القرية قد قبعوا فى دورهم على عادتهم فى مثل هذا اليوم ملتفين على نار الحطب يستدفئون ريثما تشرق الشمس ويذوب الثلج .

ماذا أفعل فى يوم مثل هذا اليوم وأنا لم أستعد فى الدار للشتاء فلا نار ولا بساط وإنما التخت واللحاف والعباءة ومقعد من المقاعد وهو الديوان ، فاستلقيت على الديوان وأمامى شجر الجنينة تحسب الثلج على أغصانه زهراً أبيض وقلت فى نفسى : هذا يوم قراءة ولم يكن معى إلا قصص وضعتها السيدة سلمى الحفار الكزبرى ودفعتها إلىّ لأقدّمها للقراء وقد كنت تهيأت لقراءتها وتقديمها فلم يتم لى شىء من ذلك. فى حالة مثل هذه الحالة شرعت فى قراءة هذه القصص فما كدت أقرأ قصة منها حتى أحسست بأننى نقلت من عالم هادئ إلى عالم مضطرب ، نقلت إلى عالم لذيذ أليم ، موحش مؤنس ، مفرح محزن ، عالم تكثر فيه — المغنيات والسهرات والفتيات الشقر ، يتنازع فيه ضياء الشمس وضياء الشعر وتختلج فيه القلوب وتصطدم العواطف وتتزاحم الأهواء ، والذين شيعوا أحلامهم ولما شباكهم من طرق الملاح ورجعوا أدراج الشباب يدركون قيمة هذا العالم وفتنته !

فى حالة مثل هذه الحالة شرعت فى قراءة قصص السيدة الأديبة سلمى ، لقد كنت أرى فى هذه القصص الفتيات الشقر وثياب السهرات وضياء الشعر فأستأنس ، ثم أرى الموت يخطف هذه الحور والملائكة فأستوحش ، فكنت فى عاملين متنازعين : عامل الوحشة وعامل الأنس ، ولولا قراءة هذه القصص لكنت مسترسلا إلى أحلامى فى

قرية يكاد هدوءها يشبه هدوء الموت ، لا أسمع حسًّا ولا أرى جليساً وكأن هذا الثلج الذى يلف القرية فى نواحيها كلها كفن من الأكفان أدرجت القرية فيه !

لست أدرى لماذا انتقلت من عالم الهدوء إلى عالم الضوضاء ، لست أدرى لماذا اخترت هذا اليوم لأقرأ هذه القصص فأسمع أحاديث الحب نهاراً كاملا ، فأرى اضطراب العشاق وأشهد قلة نومهم وضعف أكلهم واشتغال ذهنهم وتقطع كلامهم ، لماذا نقلتنا السيدة سلمى إلى عالم لا راحة فيه ، وإذا وجد الإنسان فيه ساعة لذة وجد إلى جنبها ساعات ألم ، وأىّ ألم أشد من بعد عن حبيب ملك عليك كل طرف من أطراف قلبك ، أفما كان الأجدر بى فى يوم مثل هذا اليوم أن أعيش فى أحلامى فأشهد الموت الأبيض يحيط بجبال القرية ودورها وشجرها ولكن السيدة الفاضلة لم تتركنا فى هذا الهدوء فقد أحبّت أن تقص علينا أحاديث الحب وأحبت أن تشغل بها قلوبنا وهى أحاديث قديمة ، حديثة ، قد تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات وتولد مذاهب وتموت مذاهب وتأتى أمم وتدرج أمم والحب واحد فى كل العصور ، لا يفنى ولا يبلى شغل القلوب فى الماضى ويشغلها فى الحاضر وسيظل الحب شاغلنا ما دام دمنا يجرى وقلبنا يخفق ، سيظل شاغل كل واحد منا فى فى صباه وشبابه واكتهاله ومن يدرى فقد يكون حب الشيوخ أشد

من حب الشباب ومن منا يقرأ شعر شوقى الذى يبكى فيه على شبابه ويحن إلى جنون هذا الشباب ولا يشفق على هذه الشيخوخة المرحة المتصابية !

نحمد الله على أن السيدة الفاضلة لم تنقلنا إلى عالم حبّه معقّد الجوانب نتعب فيه عقولنا حتى نهتدى إلى أسراره ونعمل فيه رويتنا حتى نصل إلى بواطنه فإن السيدة سلمى حفظها الله لا نجد من أبطالها التعقيد الذى نجده فى أبطال بعض قصص من قصص (موباسان) أو (موروا) فالحب الذى يستفيض فى قصصها حب بسيط يشبه بساطة السيدة سلمى الحفار نفسها فهو حب عظيم لأن البساطة عنوان العظمة ، لا عقدة فيه ولا تنازع عواطف ولا تناقضها ، تحدّث امرأة من النساء زوجها بجمال امرأة أخرى فيعلق بها الرجل ويحبها ويطلق الزوجة الأولى ، وتدخل امرأة فى بعض الفنادق غير غرفتها وتستلقى على سرير رجل تظنه زوجها ، هذه هى نماذج من المرأة التى تعرضها السيدة فى قصصها .

لقد أحببت أن تعرّب قصصاً (لموباسان) ولكن موباسان يعرض علينا تناقض العواطف ، امرأة تحب زوجها ثم يتصل بها أنه يحب غيرها فتغار ثم تعلم أن المرأة ماتت فتزور مقبرتها وتضع الأزاهير على قبرها ، وأحببت أن تعرّب قصصاً (لموروا) ولكن (موروا) لا يقتصر على عرض الحب فإنه يغوص إلى أعماقه فيكشف عن بواطن هذا الرجل الذى يعشق فيصور ملامح وجهه ودخائل نفسه فى كل

دقيقة من دقائق الحب وجلائله .

لم تقتصر السيدة سلمى على تصوير نوع واحد من الحب فإذا صوّرت فى بعض قصصها الرجل الطاعن فى السن الذى يتزوج شابة ثم تقع هذه الشابة فى حب شاب مثلها فتفر من زوجها ، إذا صوّرت هذا النوع من الحب وجعلت الكهول يقطعون الأمل من الحب ويبكون شبابهم ويعيشون بالذكرى فإنها لا تلبث أن تنفث فى هؤلاء الكهول شيئاً من الأمل فتروى حكاية الشابة التى علقت رجلا جاوز الخمسين ورأته أملح من الشباب ، وهكذا قد نرى فى بعض قصصها غرابة المرأة ولغز طبعها ومن الخطأ أن نجعل للنساء مقاييس نقيسهن بها فمهما تكن المرأة بسيطة فى روحها فإنها غريبة فى بعض أهوائها وعواطفها ، من الخطأ أن نجعل الشباب وحده وسيلة إلى حبها أو أن نجعل شهرة الرجل وحدها سبيلا إلى هذا الحب أو أن نجعل حلاوة حديثه أو غير ذلك من صفاته مثل هذا السبيل فالمرأة جملة غرائب ولكل طائفة منها طبائع وأمزجة خاصة أفلا نعرف فتيات من أنضر الفتيات تزوجن رجالا من أقبح الرجال ومع هذا فقد صفا زواجهنّ ولم يكدّره مكدر ، من الخطأ أن نعتقد أن الاكتهال قد يكون سبباً فى تنفير المرأة أو أن يكون الشباب سبباً فى استمالتها أو أن يكون الفقر علة فى إبعادها أو أن يكون الغنى علة فى تقريبها فلكل طائفة من النساء أمزجة وطبائع

والماهر الماهر من الرجال من يهتدى إلى أسرار هذه الأمزجة وبواطن هذه الطبائع فيأتى المرأة من نواحى هذه الأسرار والبواطن فيملك عليها عقلها ولبها حتى تكون فى يده لعبة يسلبها إرادتها وشعورها فلا تريد إلا ما يريد ولا تشعر إلا بما يشعر به .

ومن محاسن قصص السيدة سلمى الحفار الكزبرى أنها لا تخلو من هذه النماذج من النساء فقد كان الاكتهال فى بعض قصصها سبباً فى وحشة المرأة وكان فى بعضها سبباً فى أنسها ، وهكذا تنقلت بنا السيدة الفاضلة فى عالم أتقنته الإتقان كله وهو عالم المرأة فعرفت كثيراً من خصائصه وأحاطت بكثير من أموره فأحبت أن تشركنا معاشر الشباب والكهول والشيوخ فى هذه المعرفة وهذه الإحاطة وما أظن أنها أحبت هذا الإشراك إلا لتمهد سبيلا إلى تعارف المرأة والرجل وإلى تفاهمهما فما هذا الخلاف بين الرجل والمرأة فى أبعد العصور وأقربها إلا نتيجة تناكر المرأة والرجل فلا هو يفهم روحها ولا هى تفهم روحه فإذا وصلت المرأة إلى كشف الرجل ووصل الرجل إلى كشف المرأة استطاع الرجل والمرأة أن يعيشا عيشة هادئة راضية أما إذا ظل الرجل يجهل المرأة وظلت المرأة تجهل الرجل فتنافرهما بعيد مداه وأظن أن من غايات السيدة سلمى الحفار الكزبرى فى وضع قصصها تقصير مدى هذا التنافر حتى يزول فى يوم من الأيام وبهذا جاءت ببرهان على إنسانيتها

فهى لا تشبه المرأة التى ترى النار فتلقى عليها من يابس الحطب ولكنها إذا آنست النار ألقت عليها سطل ماء فإذا كانت هذه هى أخلاق السيدة سلمى الحفار الكزبرى فإنى أسامحها فى دفعى نهاراً كاملا إلى عالم فيه لذة وألم فيه شقاوة وسعادة ولتعذرنى الآن فى ترك قصصها والرجوع إلى هذا المشهد ، مشهد القرية الملتفة بكفنها الأبيض !

بلودان ١٤ كانون الأول ١٩٥١

شفيق جبرى

والأذن تعشق . . .

بينما كنا نسمر فى إحدى ليالى رمضان ونتحدث عن الأيام الخوالى حين كان الحجاب منتشراً بين مختلف الطبقات والطوائف ، وعن التطور الذى طرأ على حياتنا الاجتماعية نحن الشرقيين ، ابتسمت جدتى العزيزة وشرعت تهز رأسها مطرقة إلى الأرض وكأنها تذكرت نادرة من نوادرها الجميلة التى تعودت أن تطرفنا بها من حين إلى آخر . سألناها عن سبب ابتسامتها ومبعث تفكيرها فأشعلت لفافة وقالت :

— « ذكرت حادثة غريبة وقعت فى مدينة « حماه » إبان الحكم العثمانى فى البلاد يوم كان إسماعيل أفندى متصرفاً فى هذه المدينة . وقد جرت وقائع الحادثة أثناء وجودى أيضاً فى حماه ، إذ كان جدكم رحمه الله ، موظفاً فيها . والآن جالت بذاكرتى هذه القصة لأنها تتعلق مباشرة بالحجاب . وأنتم تعلمون أن الإنسان تواق لمعرفة المجهول من الأمور والأشياء ، والرجل يبذل أقصى جهده ويعرّض نفسه أحياناً للكثير من المخاطر والمشاكل فى سبيل ذلك ، خاصة إذا كانت « المرأة » محور ذلك المجهول . . . وأنا أعتقد أن شوق الرجال لمعرفة النساء واهتمامهم بأمرهن ، وتعقيبهم آثارهن كان كبيراً ومحاطاً بهالة من السحر الحرام يوم

كنّ متحجبات ، خلافاً لما نحن عليه اليوم وقد أصبحت النساء عرضة لأعين الناظرين . ولقد صدق المثل السائر « وكل ممنوع مرغوب فيه » أما إسماعيل أفندى المتصرف فقد عرف وقتئذ بشغفه الشديد بالجمال والموسيقى وكل شىء ممتع فى الحياة إلى جانب حيوته الوثابة ومرحه ونشاطه الكبيرين . ويقول من عاشره قبيل زواجه فى تركيا إنه كان من الشباب المتهتكين ولكنه حظى بشريكة لحياته على جانب كبير من الحسن والرقة . ولما أتى إلى حماه ليشغل وظيفة المتصرفية فيها صحب زوجته معه ، وكان أباً لولدين . وهنالك أتيحت لى فرصة التعرف بها وتبادلنا الزيارات وقتاً طويلا ، وكانت تقدر الفن والجمال وتحب كل فاتن جذاب . وفى ذات صباح فوجئت بسماع نبأ كدت لا أصدقه لولا وجود جدكم فى دار المتصرف ساعة حصوله . »

وهنا سألنا جميعاً بصوت واحد :

— « وماذا حصل يا ترى ؟ »

فأجابت جدتنا الحبيبة مبتسمة مهددة :

— « ستقفون على ما حصل فى نهاية القصة ، فاستمعوا إليها بأناة دون أن تقاطعونى وإلا أمسكت عن الكلام . »

واستطردت تقول :

— « يجب أن تعلموا أن حوادث هذه القصة جرت قبل خمسين

عاماً ، يوم كانت الدور خالية من كماليات البناء الحديث ، أى يوم كانت الحمامات للناس عامة فى الأسواق . وفى ذات مساء ذهبت عفة هانم حرم المتصرف للاستحمام مع جاريتها ، غير أنه حان وقت العشاء ولم تعد إلى الدار . اضطرب إسماعيل أفندى وأرسل من يسأل عن سبب تأخرها . وبعد قليل عاد الرسول يقول إن « الهانم أفندى » لم تنته من الاستحمام بعد ، وأنها ستعود بعد نصف ساعة » .

دهش إسماعيل أفندى من هذا الاعتذار ، وما أن رأى زوجته تدخل ووجهها تعلوه حمرة قانية تركتها حرارة الحمام فيه حتى سألها مستغرباً :

— « متى كنت تقضين خمس ساعات فى الحمام يا عفة ؟ »

— « سأقص عليك حكايتى فامهلنى قليلا . »

وجلس الزوجان كل منهما يحاول كتمان ما فى نفسه ، إسماعيل أفندى يحاول كتمان غيظه ، وعفة هانم تحاول كتمان غبطتها ، وفجأة راحت تقول :

— « لقد اجتمعت يا أبا أنيس بحورية من حور الجنة قبيل دخولى مقصورة الاستحمام ، بسيدة لم تقع عينى على أجمل منها أبداً . فأنسانى الاجتماع بها والإصغاء لعذب حديثها مرور الساعات . رأيتها حينما جلست لأرتاح فى فسحة الحمام الخارجية أمام بركة الماء وكانت تضع مناشفها وثيابها فى مكان قريب منى . إن لها يا عزيزى جاذبية

لا يستطيع إنسان أن يقاومها ، حتى أنا ، أنا المرأة رأيتنى أبدأها بالسلام وتجيبنى بصوت فيه إيقاع عجيب ، وما أن التفتت نحوى حتى فهمت بأن الله قادر على أن يجمع عناصر الجمال فى امرأة واحدة . وجلسنا نتحدث ، فعلمت أنها ابنة الأومباشى كامل سعيد ، تزوجت منذ أعوام من ابن عم لها ورزقت طفلتين ، بيد أن الدهر القاسى نالها بسهامه وهى فى عنفوان الشباب إذ سلبها منذ عام معيلها وأبا طفلتيها . فعادت المسكينة إلى دار أبيها لتقاسى مرارة العيش الضيق وتقاسم والديها وإخوتها شظفه . لقد رثيت لحالها وشاركتها فى البكاء لأنها وقعت من قلبى موقع الأخت العزيزة ، أو الابنة الغالية ، أو قل ما شئت . . . أواه يا أبا أنيس من شراسة الأيام ! ! تمنيت أن أصحبها إلى دارنا للترفيه عنها والتمتع بوجهها الصبوح وجمالها الملائكى ، ولكنها عفيفة النفس إلى أبعد حدود العفة . وكأنى لاحظت أنها خجلت وارتبكت لما علمت أننى امرأة المتصرف لفقر حالها ورثاثة ثيابها . إنى متأكدة يا عزيزى أنك لو رأيتها وشاهدتها وهى تبكى وتبتسم فى آن واحد لنسيت نفسك ومرور الساعات . إنى لم أر قبل الآن إنساناً يزيد البكاء جماله مثلها . وبقينا فى سمر متواصل إلى أن نبهنا آذان المغرب عن استغراقنا فى الحديث ، فدعوتها للاستحمام فى مقصورتى الخاصة . ولما انتهينا ، لم يمنعنى سؤالك عن سبب تأخرى من مرافقتها فى عربتى إلى دار أبيها لأنى أشفقت على

زهرة نضرة أن تسير فى الليل منفردة وهكذا أوصلتها إلى الدار الكائنة فى « جادة العاصى » ودعوتها لزيارتى مع والدتها وجئت وبى شبه ثمل من تأثير هذا الاجتماع . »

سردت عفة هانم قصتها على زوجها بحرارة واندفاع ولم تخف عنه أبداً أنها أغرمت بهذه السيدة غراماً بالغاً — ارتجت له أوتار قليها .

أصغى إسماعيل أفندى إلى حديث زوجته الساذجة بكثير من الانتباه ، وبعد أن انتهت سألها باشًّا مازحاً :

— « وما اسم صديقتك الجديدة يا ترى ؟ وما عمرها ، وهل هى شقراء أم سمراء ؟ »

فأجابت المسكينة فوراً ، وقد علت أساريرها آمارات الارتياح لاهتمامه بأمر من أحبت .

— « اسمها ثروة يا عزيزى . ويتراوح عمرها بين الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين على ما رأيت ، وهى شقراء تملأ القلب بهجة ، ولها عينان خضراوان تظللهما أهداب كستنائية ، أما شعرها المسترسل الطويل وقامتها الرشيقة فما أستطيع لهما وصفاً . إنها آية ، آية الدل والخفر والجمال ! »

وهنا أطرق إسماعيل أفندى قليلا ثم قال :

— « لا بأس والحالة هذه من أن تدعيها ووالدتها لزيارتك ، وأن

تساعديها ماديًّا ومعنويًّا إذا أمكن . والآن هلمى نتناول طعام العشاء، وأنصحك أن تنامى فوراً بعده لأنك متعبة جسما وفكراً . . . »

« وهكذا فعلت أم أنيس ، فقد استسلمت للكرى بعد العشاء أملا فى أن يدغدغها حلم جميل . أما إسماعيل أفندى فقد استقبل رواد منزله لقضاء السهرة معهم كالمعتاد .

كان لا بد لجدتى من إشعال لفافة ثانية ، فحاكيناها فى ذلك ونحن فى شوق كبير للوقوف على نتيجة القصة . ثم استطردت تقول بلهجتها الطلية الأخاذة :

— « وفى حوالى منتصف الليل أرسل إسماعيل أفندى خادمه إلى دار الأومباشى كامل سعيد يدعوه للحضور حالا . وما لبث الأمباشى أن وصل متلهفاً ، فابتدره المتصرف بلهجة مطمئنة قائلا :

— « إنى آسف لإزعاجك فى مثل هذه الساعة ، ولكنى أحببت أن أكافئك على حسن سيرتك وأمانة خدمتك بأن أرفعك إلى رتبة ملازم منذ الآن . »

فخرّ الأمباشى القديم على قدمىّ المتصرف حامداً ، وقد تلعثم لسانه بآيات الشكر ، فأنهضه إسماعيل أفندى برفق ، ولما جلس وشرب القهوة عاد إليه سائلا :

— « والآن لى عندك طلب يا حضرة الملازم . سمعت أن لك بنتاً شابة

فقدت زوجها منذ عام ، فهل تقبل بى صهراً لك ؟ »

تلت المفاجأة الأولى مفاجأة ثانية أشدّ وقعاً ، فاحتار أبو الفتاة فى أمره وأصبح لا يدرى إن كان فى حلم أم فى يقظة ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقول :

— « إنى طوع أمرك يا سعادة المتصرف ، إنه لشرف لى عظيم أن تتزوج من ابنتى ، غير أن لها بنتين صغيرتين وهى لم تزل فى ثوب الحداد على ابن عمها ، كما أنى لا أعلم فيما إذا كانت ترغب فى الزواج ثانية أم لا . »

فأجابه إسماعيل أفندى بلهجة الآمر المغتاظ :

— « إنك تستطيع التأثير على ابنتك ، ثم متى كان للفتيات رأى فى أمر زواجهن ؟ أما بنتاها فأنا أعتبرهما بنتى العزيزتين . وطالما وافقت أنت على طلبى الذى فيه إسعادكم جميعاً سأقدم لك مهر الصبية الآن أمام صديقى الحاضرين اللذين اعتبرهما شاهدين . وبما أنى أعتقد أن خير البرّ عاجله لذلك سأحضر الشيخ لعقد القران حالا لأنى أريد أن أتزوج ابنتك الليلة . »

صعق الملازم الجديد ولم يستطع أن يفوه بكلمة لأن اللهجة التى خاطبه بها المتصرف قطعت عليه سبل الاعتراض . وبعد أن حضر الشيخ وعقد القران نهض جدكم يا أعزائى وقائد الدرك لتهنئة المتصرف

والملازم معاً . وهكذا فقد حضرا الحفلة العجيبة ، وكانا شاهدىّ عقد القران . ثم أمر إسماعيل أفندى سائسه بتحضير العربة لتقل عمه الجديد إلى داره حيث يوقظ ابنته من نومها ، ثم يأتى بها إلى دار زوجها الجديد . . .

قضى إسماعيل أفندى ليلة نابغية إلى جانب التى عشقها قبل أن رآها وقد أطرى فيها كثيراً ذوق عفة الرفيع . . .

وفى صبيحة اليوم الثانى دخل إسماعيل أفندى غرفة زوجته الأولى التى انقلب مجرى حياتها وهى غارقة فى دنيا الأحلام . . . تيقظت عفة على وقع أقدامه فبادرها قائلا :

ـ « أسعد الله صباحك . هل رأيت صديقتك الجديدة فى المنام ؟ ماذا تقولين لو أرسلت من يأتى بها إليك الآن ؟ »

فتوردّت وجنتا عفة هانم وأجابت عاتبة :

ـ « لقد تحدثنا البارحة عن ثروة وكفى . أجل يا أبا أنيس أتمنى من كل قلبى أن أراها اليوم أيضاً ، ولكن لا أريد أن تسخر منى كما فعلت الآن ، إن الله جميل ويحب الجمال . »

فأجابها جادًّا :

ـ « كلا أنا لا أسخر منك ! معاذ الله ؛ وإن الله جميل حقًّا ويحب الجمال كما قلت ، فتعالى معى هنيهة إلى غرفتى لأريك هدية نفيسة وصلتنى هذا الصباح من السلطان . »

واقتادها إلى غرفته حيث طلب منها أن تقبل ثروة أختها الجديدة . فلم تغضب عفة هانم مما حدث ولم تتردد فى تقبيل ثروة، وأحاطتها فيما بعد بكل رعاية وعناية . فلقد عاشتا معاً ما يقرب من عشرين سنة ، أنجبت ثروة خلالها سبعة أولاد منهم ثلاث فتيات أخذن الكثير من محاسن أمهن . »

وأضافت جدتى قائلة :

— « إن للجمال أثر السحر فى نفوس بعض الناس ؛ وأن الحجاب مما يزيد فى روعة الجمال . وليس أدلّ على البيت الذائع . « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » من قصة صديقتى عفة ، طيّب الله ثراها ، فقد كانت طيبة القلب ، محدودة التفكير ، جاهلة أن للجمال قوة عظيمة تتضاءل أمامها كل قوة ، ويتلاشى دونها كل سلطان . فيا لسخافة النساء حينما يصفن لأزواجهن محاسن الأخريات . . . »

الدار

لأندريه موروا

حدثتنى فقالت : كنت مريضة منذ عامين ولاحظت أثناء مرضى أنى أحلم كل ليلة حلما واحداً أرى نفسى فيه أقوم بنزهة فى الريف ، وألمح داراً بيضاء من بعيد ، طويلة الواجهة واطئة ومحاطة بغابة صغيرة من الزيزفون . وكنت أرى إلى الجانب الأيسر من هذه الدار ، حديقة مسوّرة بأشجار الحور ، وألمح من بعيد أغصانها العالية ، تتأرجح فوق الزيزفون ، وكنت فى هذا الحلم أشعر بجاذبية نحو هذه الدار تسوقنى إليها . وكان مدخلها محاطاً بحاجز مدهون باللون الأبيض ، ثم كان على الداخل إليها أن يتبع ممراً قليل الانحناء محفوفاً بالأشجار التى كانت تفصل بينها أزهار متنوعة وشقائق النعمان ، ولكن هذه الأزهار كانت تذبل إذا ما قطفتها . وفى آخر هذا الممر توجد ساحة كبيرة مجللة بالحشيش الذى كانت تتخلله أزهار البنفسج ، وكان لهذه الدار المبنية من أحجار بيضاء ، سطح من القرميد ، وأما بابها فهو من السنديان ، فاتح اللون منقوش الإطارات .

كنت أرغب فى زيارة هذه الدار ولكن لم يجب أحد على ندائى ،

فكنت أرن الجرس وأنادى فلا ألاقى إلا الخيبة وعند ذلك أستفيق .

هذا هو حلمى وقد تكرر مدة أشهر طويلة بدقة وانطباق جعلانى أفكر أنى شاهدت فى طفولتى هذه الحديقة وهذا القصر ، ولكنى لم أستطع ، فى حالة يقظتى ، أن أستعيد هذه الذكرى ، وبت أبحث بعناد عن ذلك إلى أن تعلمت قيادة السيارة ، وقررت أن أقضى عطلتى الصيفية سائرة على طرق فرنسا للبحث عن دار أحلامى .

لا أريد أن أصف لك رحلاتى الآن ولكنى جلت أنحاء النورماندى والتورين والپواتو دون أن أعثر على شىء ، فعدت فى تشرين الأول إلى باريس وعدت أحلم بدارى البيضاء طيلة الشتاء ، وبينما كنت أجتاز وادياً قريباً من جزيرة آدم « L'Isle Adam » فى أحد الأيام ، شعرت فجأة برعشة لذيذة ، بذلك الانفعال الغريب الذى يسيطر على حواسنا عند ما نرى بعد غياب أشخاصاً أو أمكنة كنا نحبها .

ومع أنه لم يسبق أن أتيت إلى هذه المنطقة ، فقد عرفت بوضوح تام المنظر الذى لاقيته منبسطاً على يمينى وكان عبارة عن أغصان من الحورْ متدلية على أكوام من الزيزفون ، وكانت تبدو للناظر دار بيضاء من خلال أوراق الزيزفون المتفرقة ، فعرفت وقتئذ أنى وجدت قصر أحلامى ، ولم أكن أجهل أنى سألاقى طريقاً ضيقة بعد حوالى مائة متر من الطريق العام . وكانت ، كما تخيلتها ، فتتبعتها فأوصلتنى إلى أمام الحاجز

الأبيض . وبعد ذلك الحاجز كان الممر الذى كثيراً ما اجتزته فى أحلامى ! فبدأت أمتع ناظرى ببساط الأزهار الذى كان ممدوداً تحت الأشجار ، ثم قطعت غابة الزيزفون ورأيت ساحة الحشيش الواسعة والفسحة الصغيرة التى كان يعلوها باب السنديان ذو اللون الفاتح ، فخرجت من السيارة وصعدت السلم بخفة ورننت الجرس ، لقد خشيت كثيراً ألا يجيبنى أحد ، ولكن خادماً ظهر أمام عينى بسرعة وكان رجلا حزين الوجه متقدماً فى السن مرتدياً معطفاً أسود . لاحظت أن الدهشة استولت عليه حينما رآنى وأخذ يطيل النظر إلىّ دون أن يتكلم فقلت له :

ـ سأطلب منك أن تسدى إلىّ معروفاً قد يبدو لك غريباً ، إنى لا أعرف أصحاب هذه الدار ولكنى أكون سعيدة إذا سمحوا لى بزيارتها .

فأجابنى بلهجة المتأسف المتحسر :

ـ إن الدار يا سيدتى معروضة للإيجار ، وأنا موجود هنا لأريها للراغبين .

فأجبته :

ـ أصحيح أنها للإيجار ؟ يا لهذا الحظ الكبير . . . . . وكيف ينخلى أصحابها عن دار جميلة كهذه ؟

ـ كان أصحابها يسكنونها فيما مضى يا سيدتى ، ولكنهم أخلوها منذ

أن شعروا بأن الأشباح تتردد عليها .

فقلت :

– الأرواح والأشباح ؟ فهذا لن يؤخرنى عن استئجارها قط ، ولم أكن أعلم أن الناس فى الأقضية الفرنسية ما زالوا يؤمنون بالأشباح .

فأجابنى جادًّا :

– وأنا يا سيدتى لم أكن أعتقد فى ذلك قبل أن ألاقى فى الحديقة ليلا الشبح الذى دفع أسيادى للهرب .

فقلت وأنا أحاول الابتسام .

– يا لهذه القصة !

فأجابنى الشيخ بلهجة فيها عتاب :

– إنها قصة يجب عليك بصورة خاصة ألا تضحكى منها يا سيدتى ، لأن هذا الشبح هو أنت بالذات ! »

ثلاثة أيام

اجتمعت الصديقات الثلاث ذات مساء ، وقد تجاوزت كل منهن الخمسين من عمرها ، وبدأن الحديث عن الماضى . . . وذكريات الحب هى أجمل ما يردده الإنسان فى شيخوخته ، فيذكر نشاطه وشبابه وساعات هنائه .

كان الاجتماع فى دار السيدة منى هانم ، تلك السيدة التى اشتهرت فى مصر بجمالها وحلاوة حديثها . وقد مات عنها زوجها منذ أربع سنين تاركاً لها ولدين هما سلواها وقرة عينها . ودار الحديث حول الماضى كما قلت ، وبعد أن استمعت منى إلى صديقتيها تتحدثان عن أحلى أيامهما أطفأت لفافة كانت تدخنها وأشعلت ثانية بحركة عصبية وشعّ من عينيها نور عجيب . . . ثم ابتلعت جزءا من الدخان وقالت :

— « أودّ لو يكتب على قبرى حينما أموت أنى لم أعش فى حياتى أكثر من ثلاثة أيام عرفت فيها معنى الحياة ولذة العيش لأنى عرفت الحب الصحيح .

وكان ذلك قبل زواجى بعامين ، يوم كنت فى الثانية والعشرين ،

أتنقل مع أخى الكبير ووالدتى وأختى الصغيرة فى مناطق الاصطياف الرائعة فى سويسرا . وإنى لأذكر أنى كنت أجهل أشياء كثيرة قبل ذلك الحين ، منها تلك العاطفة الجياشة التى كانت تنتاب أترابى والتى يسمونها الحب . بل كنت أهزأ منهن حينما كن يتحدثن أمامى عن الحب وأقول لنفسى إنهن ضعيفات الإرادة ، راضخات للوهم لا أكثر ولا أقل . . . إلى أن نزلت باحة الفندق فى جنيف ذات صباح ، وعرفنى أخى بصديقه الفرنسى ادوارد . مددت يدى لمصافحته فرأيت أمامى رجلا مربوع القامة ، مائلا للبدانة ، أشقر الشعر وقد بدأ المشيب جولته الأولى فى رأسه وشاربه . وما أن وقع نظرى على عينيه الزرقاوين حتى انتابتنى رعشة خفيفة فسحبت يدى ورددت التحية باسمة مضطربة وجلست . وبعد قليل نهض أخى ليخبر مطعم الفندق بأن يضيف كرسيًّا إلى مائدتنا لصديقه فى الدراسة وعميله فى التجارة . فرمقنى ادوار بنظرة عميقة أحسست أنها اخترقت صدرى ونفذت إلى صميم قلبى وقال :

— « يقول أخوك أن اسمك (مونا) فما هو معنى هذا الاسم ؟ »

أعجبنى شكل ادوار وصفاء عينيه ونبرات صوته الدافىء ، فترجمت له كلمة (المنى) وقد شعرت أن دمى صعد إلى وجهى دفعة واحدة ، فقال :

ـ « ليتنى كنت عربيًّا ! إذاً لكنت سعيد الحظ قريبا من المنى . . . إنك بارعة الجمال يا منى ، وهل كل الشرقيات على شاكلتك ؟ لا أظن ، لأنك من النادرات فى العالم اللواتى إذا تعرّف بهن الإنسان أحس أنه خلق من جديد ، وأنه أمام جنية أو حورية أو ملاك ! إنك ملاك هبط هذا المصيف ليزيد على جماله جمالاً وروعته روعة » .

حاولت تغيير الحديث فألقيت عليه أسئلة بلهاء . . . ولكنه لم يجب بل قال وعيناه عالقتان فى عينىّ وفى شعرى وفى يدىّ :

ـ « دعينى ألمس يديك ثانية لأتأكد من وجودك » .

فخبأت يدىّ تحت معطفى مرتبكة وأجلت طرفى فى الحديقة بوجل وحيرة ، فاستطرد يقول :

ـ « إن المصريين سمر على ما أعلم ، فمن أين لك بياض البشرة هذا ، ولون العين الرمادية النرجسية ؟ » .

فأجبته بحياء :

ـ « يقولون أن جدتى لأمى كانت تركية شقراء » .

وهنا عاد أخى نبيه وقضينا نهاراً كنت سعيدة فى كل لحظاته ، وكنت أسمع دقات قلبى بتواصل . لقد أحببت ادوار على كبر سنه ، حبًّا عنيفاً رمانى بالحيرة والاضطراب ، ولم تترك لى الظروف وقتئذ المجال الكافى للتفكير فى نفسى . . .

كنت أرفض الزواج من الشبان الذين تقدموا لخطبتى ، لأنى أحب الرجولة الناضجة ولا أقيم لعمر الخاطب وزنا ، ولم يتقدم لخطبتى أحد موفور الصفات التى أتطلبها . كان ادوار رجل أحلامى ولكنى علمت منذ الساعة الأولى أن حبنا ، على عنفه ، لن يدوم ولن يثمر . . . فالعقبات جسام وأهمها الفارق فى الدين والجنسية . . . ولكننى سعدت بلقياه ونعمت بمشاهدته وسماع حديثه الجذاب . وأوكد لكما يا صديقتىّ الغاليتين أن حبنا هذا ، على قصر عمره ، قد خلف فى نفسى أثراً بليغاً عذباً لم تقدر الأيام التى مرّت على بعده ، حلوها ومرّها ، أن تمحوه قطّ .

قضيت الليلة الأولى نشوى . . . وإدوار لم يفارق أحلامى ، وإذا ما أرقت كانت صورته تتمثل لناظرى وصوته الدافىء يرن فى أذنى ، وهمساته الرقيقة تدغدغ سمعى إذ يقول : « لقد سحرتنى يا منى ، أرى أنك لم تحبى أحداً قبل اليوم ، إن عينيك تبوحان بسرّك ، إنى أعبدك حتى الموت . . . »

وفى اليوم التالى جاء ادوار صباحاً وطلب من أخى أن نذهب جميعاً برفقته لنقوم بنزهة فى بحيرة ليمان ؛ ولكن أخى نبيه اعتذر عن والدتى لأنها أحست ليل أمس برشح شديد وقال :

— « أحب يا عزيزى أن أبقى إلى جانبها وأكون لك شاكراً إذا

اصطحبت منى وسلوى » .

فأجاب إدوار : « بكل سرور » وذهبنا نحن الثلاثة ممسكين يداً بيد ثم أخذنا شراعاً جلسنا فيه جنباً إلى جنب وأنا غير مصدقة كونى معه على انفراد تقريباً . . . نظرت إلى البحيرة الهادئة السادرة ففاضت نفسى بالطمأنينة والحبور ، ثم رفعت نظرى إلى السماء فوجدتها زرقاء صافية من الشرق ، ورمادية مغبرة وكأنها قطعان غنم من الغرب ، فاغرورق الدمع فى عينى ونظرت إلى ادوار ، وكان يلاحقنى بنظراته ، فخجلت من ضعفى وقلت له إن هذا المنظر ذكّرنى بالنيل وبأيام الخريف بالقاهرة . . . فابتسم وهز رأسه متحسراً ثم أسمعنى مقطوعة من شعره عن خريف العمر يندب فيها أيام لهوه وشبابه . . . وفيما هو ينشدها فاضت دمعة من عينه فمسحها بأناة وقال :

ـ « لقد ضرب المشيب فى رأسى وأصبحت كهلا تجاوز الخمسين كما ترين ، بيد أن قلبى شاب مفعم بحب الحياة والجمال . وأنا أوصيك يا منى أن تتمتعى بشبابك ما أمكن ! »

فأجبته :

ـ « لا أصدق أنك فى الخمسين ، إنما أعطيك أربعين عاماً ، ولكن ، ما لنا ولحسبان السنين فأنت شاب فى العشرين بالنسبة إلى مرحك وحيويتك . »

فابتسم تلك الابتسامة الأخاذة وقال :

– « سأبقى هكذا طالما أنا بقربك ، بل إن معرفتى إياك جعلتنى أشعر أن الدهر عاد بى ربع قرن إلى الوراء . »

وأخذ يصف عينىّ وابتسامتى وشعرى ثم مدّ يده فأعطيته كفى وإذا به يقرأ خطوطه باهتمام ويبشرنى بمستقبل هانىء . وضحكنا طويلا لا لسبب معين سوى أننا سعداء ، ثم عدنا إلى الفندق وأنا أشعر بأن روحى أخذت نصيباً وافراً من الغذاء . ولما جلسنا على مائدة الطعام لم أستطع أن أبتلع أكثر من لقيمات ، فأخذت كتابى وقت القيلولة (بعد أن رقد صحبى . . .) ونزلت إلى الحديقة أنتظر إدوار حسب الوعد . وما إن صارت الساعة الثالثة حتى أقبل يمشى بنشاط والحبور متجسم فى ملامحه .

جلسنا نتبادل أطراف الحديث وأنا عاجزة عن الخوض معه وعن إجابته على أسئلته وتعليقاته الحلوة التى لا تخطر على بال ، وكنت متمنية لو تقف عجلة الزمن وأمتع به وبحديثه إلى الأبد . . . ولكن أمنيتى لم تتحقق لأن الساعة ظلت تدور ؛ ولما بلغت الرابعة والنصف انصراف ادوار على أن يعود لرؤيتنا جميعاً بعد العشاء . فصعدت إلى غرفتى واستلقيت على فراشى مغلقة العينين ، حالمة ، إلى أن جاءت سلوى تناديني إلى غرفة أمى وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة .

وما إن حان وقت العشاء حتى نفد صبرى ، فعاد إدوار وسهرنا على الفسحة نستمع لأقاصيصه الساحرة ونكاته ، وقبل أن ينصرف دعانا لقضاء يوم الغد فى إحدى ضواحى جينيف .

طال ليلى وانتظرت بزوغ الفجر بين اليقظة والحلم وأنا أفكر فى الثوب الذى سأرتديه فى الغد ، وفى طريقة تسريح شعرى على شكل جديد . ثم نظرت طويلا إلى وجهى فى المرآة ، وخيل إلىّ أن وجه ادوار باد منها ينظر إلىّ بإعجاب . . .

وأخيراً أصبح الصباح فذهبنا مع إدوار وقضينا اليوم الثالث بسرور كبير ، ولكنى وجدته قصيراً ، وقصيراً جداً . وفيما كنا نتمشى فى جنبات المقهى الذى تغدّينا فيه سمعنا نغم قيثار يدنو منا ، وإذا بالعازف فقير أعمى يعزف للناس مقابل دراهم يجودون بها عليه فيكسب بها قوت يومه . أصغينا إليه باهتمام ، وبعد أن فرغ من العزف والإنشاد أعطاه إدوار كلّ ما فى محفظته ، فعجبت للأمر وسألته هامسة ، وكنا بعيدين عن أمى وأختى :

ـ « هل أنت ذاهل لقد أعطيته نقودك جميعها ؟ »

فأجابنى بحماسة ورمقنى بتلك النظرة الثاقبة التى لم يرمقنى بمثلها أحد بعده :

ـ « إن ذلك الأعمى المسكين يستحق أكثر مما أعطيته لأنه محروم

من رؤيتك يا حبيبتى فواجب علىّ أن أعوض عليه خسارته هذه بالمال ! ! »

يا لحلاوة الحب ! إنه كما قال لى إدوار أنبل عاطفة تجتاح قلب الإنسان لأنها تجعل منه مخلوقاً طيباً ، مرحاً جميلا ، ومحبًّا لكل شىء على وجه الأرض !

ولما أتى ادوار فى اليوم التالى فوجىء بقرار أخى بالرحيل وكأنه نزلت عليه الصاعقة . أما أنا ، فلم أستطع إلا الرضوخ لمشيئة أمى وأخى على مضض . وكانت آخر محادثة بينى وبينه قبل الرحيل بدقائق ، محادثة خاطفة عرض فيها علىّ الزواج فقلت « هيهات ، هيهات : إنه لأمر مستحيل ! »

فقال :

« يا لسوء حظى يا منى ، إننى أشبـــه نفسى الآن بمسافر على ظهر سفينة ، وفيما السفينة تعبر البحار ، اكتشف جزيرة جميلة هى جزيرة أحلامه فاقتربت منها السفينة شيئاً فشيئاً وأوشكت على اجتيازها ، ولكن أنى لها أن تقف فى عرض البحر ؟ . . . وهأنذا الآن بين أمرين : أأبقى على ظهرها وأتم السفر إلى مقرّ مجهول يائساً حزيناً ؟ أم أرمى بنفسى فى اليم لعل الأمواج تقربنى من جزيرتى وتدفعنى إلى النزول فيها ؟ »

فأجبته والدمع يترقرق فى عينى :

ـ « إياك والقذف بنفسك فى اليمّ ، لأنه عميق الأغوار قرب الجزيرة ، والجزيرة نائية ، والوصول إليها مستعصٍ فهى محاطة بسور من الأشواك . أخاف عليك من الغرق يا إدوار ، وأنصحك بألا تجازف بنفسك بلا جدوى ، فلنحتفظ بالذكرى ، لأن الأيام تنقضى والذكرى وحدها تبقى ما حيينا للعزاء والسلوى . »

وكانت آخر جملة سمعتها من الرجل الذى أحببته بكل حواسى قوله :

ـ « لقد كنت دائماً سيىء الحظ فى حياتى العاطفية . الحياة أمامك يا منى ، والأمل لك ، أما أنا فالذكرى وحدها لى . . . إنى لأحمد الله على لقياك ، لأن هذه الأيام الثلاثة هى آخر ذخيرة أغذى بها شيخوختى القادمة ، ولأن حبك هو أطيب حبّ عرفته وآخر حب . ولكن الحياة علمتنى يا منای أن كل شىء جميل فيها قصير العمر ، فهل تعيش الوردة الفواحة أكثر من صباح ؟ . . . بل هل تدوم بسمتك الفتانة على شفاهك أكثر من لحظات ؟ ؟ »

وقبل يدىّ . . . ورجانى أن أبتسم له ، ثم قابل أخى مودعاً معتذراً عن مرافقتنا للمحطة هرباً من ساعة الوداع . . . »

الانتظار

لجى دوموباسان

كنا زمرة من الرجال نتحدث بعد العشاء فى بهو التدخين عن الوراثات المفاجأة والهبات الغريبة العجيبة حينما نهض السيد م . لوبرومان الذى كان يدعى تارة الأستاذ اللامع وأخرى المحامى البارع واستند على الموقدة وقال :

— « علىّ فى هذه الأيام أن أبحث عن وارث اختفى عن الأنظار فى حالات هائلة مخيفة . وهذه هى إحدى قصص الحياة العامة المروعة قضية يمكن أن تحدث كل يوم وهى فوق كل ذلك من أرهب القضايا التى عرفتها وإليكم هى :

استدعيت منذ ما يقرب من ستة أشهر إلى جانب سيدة تحتضر فقالت لى : « سأكلفك يا سيدى بمهمة من أصعب المهمات وأدقها وأطولها ويحسن أن تطلع إذا أردت على وصيتى الموجودة هنا على المنضدة وقد كتبت لك فيها مبلغ ستة آلاف فرنك إن لم تنجح ومبلغ مائة ألف فرنك إن قدّر لك النجاح . يجب أن تعثر على ابنى بعد مماتى . »

وهنا رجتنى أن أساعدها على الجلوس فى فراشها لكى تتمكن من الكلام بسهولة لأن صوتها اللاهث كان يرتجف ويتهدج .

وجدت نفسى فى دار غنية جداً . كانت غرفة المريضة الفاخرة مفروشة بذوق وبساطة وكان أثاثها مبطناً بأقمشة كثيفة كالجدران تجعل الناظر إليها يشعر بعظيم الارتياح من شدة نعومتها . ويخيل إليه من شدة صمتها أن الكلمات تختفى فى أرجائها وتفنى .

وقد استطردت المنازعة قائلة : « أنت الشخص الأول الذى سأبوح له بقصتى الهائلة . سأبذل جهدى لكى تسعفنى قوتى حتى نهايتها ويجب ألا تجهل منها شيئاً لكى تحصل عندك الرغبة المخلصة فى مساعدتى بكل سلطانك وأنا أعلم أنك رجل رحيم رؤوف وذو شهرة عالمية . والآن أصغ لى :

ـ «لقد أحببت قبل زواجى شاباً رفضت أسرتى أن تزوجنى منه لأنه لم يكن ذا ثروة طائلة وتزوجت بعد وقت قصير رجلا غنياً جداً اقترنت به عن جهل وخوف وطاعة وتوان كما تقترن عادة الفتيات الساذجات . ثم رزقت مولوداً ذكراً وبعد مضى سنوات عدة توفى زوجى . كما أن الشاب الذى أحببت من قبل تزوج فى هذه الأثناء . ولما رآنى أيّماً أحس بألم مفرط إذ لم يكن حراً فجاء لزيارتى وبكى وانتحب أمامى انتحاباً يحطّم القلب . ثم أصبح صديقاً لى . وكان لزاماً علىّ أن لا أستقبله

ولكن ماذا أفعل ؟ كنت حزينة وحيدة إلى أبعد حدود الوحدة ويائسة كل اليأس وكنت لا أزال أحبه أيضاً . أواه كم يتألم المرء أحياناً ! !

لم يكن عندى فى العالم سواه إذ كان والداى قد توفيا أيضاً . وكان يأتى مراراً لزيارتى أو لقضاء أمسيات بكاملها إلى جانبى .

كان يجب على أن لا أدعه يأتى هكذا على الدوام لأنه متزوج ولكن لم تكن عندى القوة الكافية لمنعه عن ذلك . ماذا أقول لك لقد أصبح عشيقى . وكيف تم ذلك ؟ هل أنا أدرى؟ وهل من أحدٍ يدرى ؟ وهل أنت تعتقد أنه يمكن أن يحصل خلاف ذلك عند ما تدفع قوة الحب المتبادل إنسانين أحدهما نحو الآخر ؟ وهل تعتقد يا سيدى أنه بمقدرة الإنسان أن يعارض ويقاوم ويرفض على الدوام ما يطلبه بالصلوات والتوسلات والدموع والعبارات الحنونية والجثى على الركب والهيام الرجل الذى نعبده والذى نتمنى أن نراه سعيداً فى أقل رغباته ؟ بل الرجل الذى نتمنى أن نغمره بكافة المسرات والذى سيفقد كل آماله وأمانيه إذا رضحنا إلى شرف المجتمع ؟ أية قوة يقتضيها الأمر ؟ أى إقلاع عن السعادة ، أية تضحية ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

وأخيراً أصبحت عشيقته وكنت سعيدة . دامت سعادتى هذه اثنى عشر عاماً وصرت صديقة لزوجته وتلك هى نقطة ضعفى الكبيرة وخيانتى الجسيمة . اهتممنا بتربية ولدى وتنشئته ليصبح رجلا كاملا

الرجولة ، ذكياً مشبعاً بالإحساس والإدارة والأهداف الواسعة المقدامة وقد بلغ عامه السابع عشر وكان يحب عشيقى تقريباً بدرجة محبته لى ، لأنه كان مغموراً بعطف وعناية كل منا له . وكان يدعوه الصديق الطيب ويكنّ له احتراماً بالغاً لأنه لم ينل منه إلا الإرشادات الحكيمة والأمثلة الصادقة عن الاستقامة والأمانة والشرف . كان يعتبره صديقاً أميناً ووفياً له ولوالدته بل قل أباً صالحاً أو وصيا وحامياً ونصيراً ، لا أدرى ؟ وأظن أنه لم يتساءل قط عن علاقته بنا لأنه اعتاد منذ نعومة أظفاره أن يرى ذلك الرجل فى بيتنا إلى جانبه وجانبى ، مهتما بشؤوننا على الدوام .

وفى ذات مساء عزمنا أن نتناول طعام العشاء نحن الثلاثة معاً (وكانت هذه الاجتماعات من أعظم مسراتى) وكنت بانتظارهما وأنا أسائل نفسى : « أيهما سيأتى أولا ؟ » ففتح الباب وأطل صديقى الحميم فتقدمت منه مفتوحة الذراعين ووضع على شفتىّ قبلة السعادة الطويلة .

وفجأة وصل إلى أسماعنا صوت حركة خفيفة جداً ، بل قل شعرنا بهذا الإحساس الرهيب الذى ينبىء عن وجود شخص آخر فى المكان ، فارتعشنا والتفتنا إلى خلفنا بهزة وارتجاج وإذا بنا نرى ابنى جان ، منتصباً أمامنا يرنو إلينا وعلامات الألم والازدراء بادية على محياه . مرت بنا لحظة جنونية شديدة إثر هذا الموقف . تقدمت نحو ولدى مبتهلة متوسلة بيد أنى لم أره قط لأنه اختفى عن الأنظار فمكثنا وجهاً

لوجه مشدوهين عاجزين عن الكلام واستلقيت على المقعد وشعرت برغبة فى الفرار برغبة ملحة شديدة فى أن أسرىء فى الليل وأختفى دونما عودة . ثم امتلأت حنجرتى بغصة النحيب وانتابتنى نوبة تشنج حادة جعلتنى أشعر بروحى تتمزق وبأعصابى تتلوى من كابوس هذا الإحساس المرعش بوقوع مصاب لا تسدّ ثلمته ، ومن جراء ذلك العار المخجل الذى يقع على قلب الأم فى مثل هذه الظروف .

وقد ظل هو . . . مشدوهاً أمامى . فلم يجرؤ على الدنو منى ولا على محادثتى ولا على مسى خوفاً من أن يعود ولدى . ثم قال بعد صمت طويل :

— « أنا ذاهب للبحث عنه . . . سأقول له . . . سأفهمه . . . يجب أن أراه وأن يعلم . . . ثم خرج وانتظرت . . . وانتظرت حائرة وأنا أرتجف لأقل حركة لأن الذعر تملكنى ولا أدرى أى نوع من الاضطراب الذى لا يمكن احتماله وخاصة عند ما كنت أسمع اضطرام النار فى الموقدة .

انتظرت ساعة ثم ساعتين وأنا أشعر بارتعاد غريب يزداد فى قلبى وبضيق شديد لا أتمنى أبداً أن يشعر بمثله أكبر مجرم من المجرمين ولو لمدة عشرة دقائق . أين كان ولدى ؟ ماذا كان يفعل ؟ وفى حوالى منتصف الليل جاءنى رسول يحمل رسالة من صاحبى لا أزال حافظة

فحواها عن ظهر قلبي : « هل عاد ابنك ؟ لم أجده قط إنى منتظر على الباب . لا أريد أن أدخل فى هذه الساعة » وقد كتبت على الورقة نفسها : « لم يعد جان يجب أن تعثر عليه . »

وقضيت الليل بكامله وأنا منتظرة فى مقعدى . كدت أفقد صوابى ووددت أن أصرخ أن أركض أن أتدحرج على الأرض بيد أنى لم أتحرك أبداً إذ كنت منتظرة . ماذا سيحدث يا ترى ؟ حاولت أن أعلم ذلك ، أن أكشف عنه ، ولكنى كنت عاجزة عن التنبؤ بالرغم من جهودى ومن آلام نفسى . وعندئذ خشيت أن يلتقيا . ماذا يمكن أن يفعلا ؟ ماذا سيفعل ولدى ؟ وهنا أصبحت فريسة الشكوك المخيفة والظنون القاتلة . إنك لا شك تدرك جيداً هذه الحالة أليس كذلك يا سيدى ؟

لقد ظنت خادمتى بلا ريب أنى فقدت رشدى ولم يكن عندها علم بشىء مما حدث . وكانت تقترب منى دون انقطاع بيد أنى طردتها مراراً بكلمة أو إشارة وأخيراً أحضرت لى الطبيب الذى وجدنى تحت وطأة نوبة عصبية حادة فوضعنى فى السرير وأصبت بالحمى الدماغية .

وحينما صحوت بعد غيبوبة طويلة رأيت . . . عشيقى . . . وحده إلى جانب السرير فصحت : « يا ابناه ! أين هو ابنى ؟ »

فلم يجب ثم تمتمت : « إنه ميت . . . ميت . . . هل قتل نفسه ؟ »

فأجاب : (كلا كلا ! أقسم لك بذلك ولكننا لم نستطع العثور

عليه بالرغم من جهودنا . »

عندئذ شعرت بنفسى تتميز فجأة من الغيظ ، والمرء قد يصادفه أن يحقد ويغضب غضباً جنونياً غريباً مثل الذى عرض لى ، فأصدرت حكماً صارماً قلت له فيه .

— « أمنعك منعاً باتاً من العودة إلى هنا ومن رؤيتى مجدداً إن لم تعثر على ولدى اذهب عنى حالا ! »

فخرج ومنذ ذلك اليوم لم تقع عينى على أحد منهما يا سيدى وهكذا عشت منذ عشرين عاماً . فهل يمكن أن تتخيل ذلك ؟ إنك لا شك تدرك مبلغ هذه العقوبة الصارمة ، هذا الألم بالبطيء المتواصل وهذا الانتظار الذى لا نهاية له . . . لا نهاية له . . . كلا ! . . . إن له نهاية ولله الحمد ، سأبلغها قريباً لأنى سأموت . أجل سأموت قبل أن يجود علىّ الدهر برؤية أحد منهما .

ولكن صديقى لم ينقطع عن مراسلتى كل يوم منذ عشرين عاماً . غير أنى ما رضيت قط أن أستقبله ولو لمدة ثانية واحدة لأنه كان يخيل إلىّ أنه فى هذه الثانية التى يعود فيها صديقى إلى هنا سأرى ابنى أمامى مجدداً ابنى . . . ابنى . . . أهو ميت ؟ أم هو حى ؟ ربما هو هنالك وراء البحار العظيمة فى بلد ناء جداً لا أستطيع حتى معرفة اسمه . أهو يفكر فىّ ؟ آه لو كان يعلم ! ما أقسى الأولاد ! هل فهم

مقدار الألم الذى حكم به علىّ ؟ وفى أى يأس وعذاب زجنى منذ كنت فى ربيع عمرى حتى بلغت نهاية أيامى، أنا أمه التى أحبته بكل ما فى حب الأمهات من قوة ؟ ما أقساه ! قل لى بربك ؟ ؟

سوف تذكر له كل ذلك يا سيدى . وأرجو أن تعيد له كلماتى الأخيرة . « كن يا ولدى ، يا عزيزى ، يا ابنى الحبيب ، أقل قسوة نحو الخلائق المسكينة . إن الحياة لجافة ، شرسة ؛ فكرّ يا بنى العزيز بحياة أمك ، أمك التعسة منذ اليوم الذى غادرتها فيه فاغفر لها يا ولدى الحبيب وحبها اليوم وقد ماتت لأنها لاقت أقسى قصاص . »

كانت محدثتى تلهث وترتجف وكأنها تكلم ابنها وهو ماثل أمامها . ثم أضافت قائلة : « ستقول له أيضاً يا سيدى إنى لم أر أبداً ... الآخر . »

وبعد أن أمسكت عن الكلام استأنفت تقول بصوت خائر متهدج : « أرجو يا سيدى أن تنصرف عنى الآن . أريد أن ألفظ آخر أنفاسى وحيدة لأنهما بعيدان عنى . » وهنا أضاف السيد لوبرمان قائلا :

— « وخرجت من عندها أيها الإخوان وأنا أجهش بالبكاء كالطفل الصغير وقد نظر السائق إلىّ أكثر من مرة فى دهشة واستغراب . »

وليست هذه الفاجعة فريدة من نوعها فكثيراً ما تتكرر مثيلاتها فى دنيانا كل يوم وحتى الآن لم أعثر على هذا الولد . . . الولد . . . ولكم الحرية أن تفكروا كما تشاؤون ، إنما أقول هذا الولد : المجرم . »

أقنعة سوداء

لاندريه موروا

كنت أرغب فى معرفة والتركوپر Walter Cooper منذ زمن بعيد . إنى أحب مؤلفاته ، ولم يتمكن أحد غيره من مجارات كيبلينغ Kiqling فى إجادة الكلام عن الحيوانات ؛ بيد أننا نجد عند كوپر الغابة المزدهرة ، الرطبة ، الآهلة بالأرانب والثعالب فى مقاطعات الجنوب ، لا الأدغال الآسيوية .

من العسير جداً الاجتماع إلى الكتاب الإنكليز لأن أكثرهم يعيشون فى الريف وقلما يؤمون لوندرة . فالأدب هنا لا يؤلف مهنة تخضع لأنظمة ووحدة ولها تلامذة كما هى الحال فى فرنسا ؛ ويعتبرون والتركوپر متوحشاً فى عزلته فى هذا البلد الذى يحترم الحريات . وقد قالت لى ليدى شالفورد :

— ستجد صعوبة فى لقاء والتركوپر فهو يقطن فى كوخ صغير مع زوجته فى إحدى قرى منطقة سوفولك Suffolk . . . كانت أسرتاهما متعصبتين وكان اثنان من أجدادهما وزيرين غير منتميين

للديانة الرسمية . . . ترتدى ميريام كوير أثواباً فضفاضة تمتد بطولها على الأرض . . . إنها جميلة جداً . . . وأظن أنها لا تتكلم أبداً . . .

لقد زاد هذا الوصف رغبتى فى معرفة آل كوپر ، وفى أحد الأيام ، اغتنمت فرصة رحلة قمت بها بالسيارة فتوقفت فى قريتهما . لم يكن يعلم السكان الذين سألتهم أن رجلا عبقرياً يعيش قريباً منهم . ولكن القصاب أعطانى عنوان آل كوپر لأنهم من زبائنه ، فسألته :

— إنك تدلنى على والتر كوپر الكاتب ؟

فأجاب :

— هذا مالا علم لى به . . . ولكنه ابن أخت الآنسة كوپر العجوز .

فتبعت الطريق التى دلنى عليها القصاب والتى كانت مسيّجة ، كثيرة الالتواء إلى أن أوصلتنى أمام بوابة مفتوحة ، تراءى لى بعد الباب درب يجتاز غابة مغروسة بالأزهار وقد زرع العوسج والدفل الأحمر والبرتقالى والعاجى بفن ومهارة بين الأشجار حتى ليخيل للناظر إليه أنه طبيعى . وأما الدار ، فهى صغيرة ، جميلة بتواضعها وفقرها ومغطاة بالقش .

فتحت لى الباب ميريام كوپر وكانت ترتدى ، كما قالت لى ليدى شالفورد ، ثوباً طويلا يستر صدرة مئزر أبيض . وأما وجهها فكان رائعاً ، تسوده مسحة من الصفاء المقلق الذى يكاد يكون جافاً . كانت

تصغى إلى ما قدمته من اعتذار دون أن يبدو على أساريرها فهمى ، وفجأة ، فى منتصف جملة كنت أقولها ، ولت هاربة كالوحش المرعوب وصرخت :

— والتر ؛

كانت حركات جسم والتر الطويل مرتبكة ، وكان لباسه مصفراً ، قذراً وممزقاً مع شىء من الجلال . فتقبل إيضاحاتى عن سبب زيارتى بترحيب صامت وأومأ إلى بالدخول إلى غرفة عمله حيث كانت الكتب مصطفة على رفوف من الخشب الأبيض . وحينما دخلنا ، التفت إلينا رجل كان يتفرس العناوين . فقدمه لى كوپر وكان ناقداً شهيراً . ثم استأنفا الحديث الذى قطعته وكانا يتكلمان عن أعواد الصليب وعن العمق الذى يجب أن تغرس فيه .

قد يبدو ذلك غريباً ولكن هذه الزيارة كانت بداية صداقة . وقد أتى والتر كوپر وزوجته لزيارتى فى باريز عند ما كانا فى طريقهما إلى تاماريز لقضاء الشتاء فيها . ثم رددت الزيارة وقضيت عندهما عطلة الأسبوع فى منطقة سوفولك حيث يقطنان . ولكن ، بالرغم من هذه الصداقة ومن رغبتهما الأكيدة فى رؤيتى مجدداً لم أتمكن من معرفة شىء عنهما أكثر مما عرفته فى زيارتى الأولى . كانا يبدوان عاجزين عن التفاهم فيما بينهما أو مع الغير وفى المساء ، كانا يجلسان

جنباً إلى جنب فى مسكنهما أمام الموقدة ويداعبان منكبيهما بحركة لطيفة . أعتقد أن كل منهما يحب الآخر .

لم أرهما طيلة مدة الحرب ، وفى عام سنة ١٩٢٠ كتبت لى ليدى شالفوردتخبرنى أنهاستقيم حفلة ساهرةمقنعة يرصد ريعها لأحدالمصحات ، وأنها تكون مغتبطة بحضورى إذا ما كنت ماراً فى لوندرة فى ذلك الحين . كان كل مدعو يخلع قناعه وهو داخل أمام صاحبة الدار ، خلف حاجز صغير ، ثم يضعه على وجهه طيلة السهرة . فقالت لى ليدى شالفورد :

— مساء الخير .... كيف كانت الرحلة ؟ ..... عساها لم تكن رديئة ؟ ..... أوه ! يجب علىّ أن أقربك من امرأة سوف تثير اهتمامك .

ثم أمسكت بذراعى وغادرت مركزها وفتشت طويلا بين الجمع المحتشد . وأخيراً قالت :

— آه ! ها هى ....

وأقعدتنى بجانب امرأة طويلة القامة ، ذات قناع أسود مثل أقنعة الآخرين ، وغابت عن الأنظار . كنت مضطرباً ، حائراً فقلت :

— انظرى كيف أن الأمر عسير جداً .... إنى فرنسى كما تدل على ذلك لهجتى ... لن أراك ، بلاشك بعد الليلة أبداً ... لذلك

سأقول لك كل ما يقوله الإنسان للأشباح فى أحلامه من الأمور السرية الحزينة . . . .

كان لجارتى يدان ناطقتان كثيرتا الحركة . وقد قبلت اقتراحى وعملت به بحذق وذكاء . وجدت عندها ، فى بادىء الأمر ، جرأة ممزوجة بشىء من المجون وهذا ما لا يلائم ذوقى الشخصى . فكانت تعترف برغبات وحشية ، فى تلك اللغة العلمية الساذجة التى بدأ فرويد Freud وتلامذته يغذون بها الأنكلوساكسون . ثم تحدثت بعد قليل بكثير من المهارة عن الناحية الجنسية عند المرأة ، وعن علاقات الحب بالطبيعة ، وعن المؤلفات التى تقرؤها ، وأكثرها من أغرب وأعمق ما كتب . . . . . حتى جعلها هذا الحديث تنال إعجابى وتستميل قلبى . فرجوتها سائلا :

— من أنت ؟ إن بعض ما أتيت على ذكره فى حديثك يجعلنى أظن أنك تعرفيننى من قبل . . . ولكنى لم أسمع صوتك قبل الآن . . . ألا تستطيعين رفع قناعك ثانية واحدة؟ . . . أليس ذلك ممكناً ؟ . . . ألا أستطيع رؤيتك بعد الليلة ؟ . . . أؤكد لك بأنى لم أمتع ولم أسرّ قبل الآن بحديث أكثر من متعتى وسرورى بحديثك الليلة .

فأجابت وهى تنهض :

— لقد قضيت سهرة طيبة . . . . طيبة جداً . . . . ولكن يجب

أن نقف هنا .

واختفت بين الجماعات ولم أحاول اللحاق بها .

وبعد مرور عشر سنين على هذه السهرة صرحت لى ليدى شالفورد أن محدثتى المقنعة كانت ميريام كوپر . لقد رأيت هذه المرأة عدة مرات خلال هذه المدة وكنت أجدها دائماً بكماء ، لطيفة ومتوحشة .

وأما والتر ، فقد اكتشفت فى الأسبوع الماضى أنه يتكلم هو أيضاً حينما يشرب الخمرة .

– « أما آن يا بنى أن تتزوج وتفرح قلبى قبل أن أموت ؟ »

– « ستعيشين طويلا إن شاء الله ، ولكن لم الاستعجال وأنا موظف خارج المدينة ، فمن يقبل أن يعطينى ابنته لتسكن قرية نائية عن دمشق مثل « صافيتا » ؟

– « إنك عنيد يا أحمد . وعلى خطأ فيما تقول ، فقد جاوزت الخامسة والثلاثين وأصبح من الضرورى أن تتزوج خاصة لأنك وحيد فى غربتك ، أما فيما يتعلق بقبول الآباء إياك فهذا أمر أكيد لأن الناس يا ابنى يفضلون قائمقاماً محترماً مثلك على أكبر موظف فى دمشق لأن الموظف فى الأقضية محترم جداً وموفور العز والراحة » .

– « حسناً يا أماه . سأتزوج لأكسب الرضا ، فاخطبى لى منذ الغد . »

فزغردت الأم وقالت مبتهجة :

– « سنفرح بك وبأولادك عما قريب إن شاء الله ، وسأبحث لك عن عروس تليق بك يا أحمد ولكن . قل لى ، كيف تريدها ؟ »

– « لم أفكر بعد فى الأمر ، ولكن أحب أن تكون طويلة القامة ، بيضاء البشرة ، حلوة الحديث . »

– « توكلنا على الله . سأوافيك بالأنباء السارة عما قريب » .

وسافر أحمد إلى مقر عمله ، وبدأت أمه وأخته فاطمة تخطبان وتسألان عن فتيات للزواج . . . فإذا ما سمعتا بفتاة ذهبتا إلى دار أبيها وطلبتا رؤيتها ، وبعد تفرس فيها طويل من قمة رأسها حتى أخمص قدميها ، وتنقيب عن عيوبها ومحاسنها ، عادتا إلى الدار وبدأتا بالنقاش حولها . فقليلا ما تتفق الأذواق . . . لأن التى أعجبت أخت العريس وجدتها الأم قليلة الصحة ذات وجه مستطيل ، وشعر خفيف . . . والتى أعجبت الأم وجدتها الأخت مائلة للسمرة أكثر منها للبياض ، ذات جبهة عريضة ، وأذنين كبيرتين . . . وهلم جرا . . . وهكذا فقد انقضى شهران عل بدء الخطبة دون أن تعثرا على عروس لائقة بأحمد . وبينما كانتا فى زيارة إحدى الصديقات ، سمعتا بفتاة نادرة الجمال ، ابنة شيخ متقاعد من أصل تركى ، وذات تربية عالية جداً لتعصب أبويها اللذين لا يدعاها تخرج من الدار إلا برفقة أحدهما ، بعد أن تكون قد تحجبت الحجاب اللازم . فسألتا عن اسم أبيها وبيته وعلمتا أنه يدعى حكمت أفندى سليم وأنه يقطن فى حى « العمارة » وهو حى من أقدم أحياء دمشق .

وفى مساء اليوم التالى خرجت الخاطبتان من دار العروس معجبتين بها كل الإعجاب. إنها حقا آية فى الجمال . بل أجمل فتاة شهدتاها حتى اليوم ، ولا يعيبها شىء سوى أنها شديدة الحياء ، والسبب فى ذلك يعود إلى تربيتها البيتية الصارمة ، وقلة معاشرتها للناس ، فهى اليوم فى السابعة عشرة من العمر ، وقد أخرجها أبوها من المدرسة منذ ثلاثة أعوام خوفاً عليها من التعرض لمشاكل السير فى الطريق بعد أن شبت واكتملت أنوثتها .

وافق أحمد على العروس بعد أن كتبت له أخته مطولا تصفها وتطريها ، فذهبت الخاطبتان إلى أم الفتاة وأعطيتاها اسمهما (وكانتا قد أخفيتاه من قبل كما هى عادة الخاطبات . . .) وطلبتا منها يد ابنتها دلال لحبيب الروح أحمد القائمقام . وأخيراً عادتا بعد أسبوع لأخذ الجواب ، فكان بالقبول ولله الحمد ، لأن حكمت أفندى أخذ المعلومات الكافية عن العريس ووافق على الزواج ، ولكنه اشترط ألا يرى العريس زوجته إلا يوم الزفاف . . . فقبل العريس الشرط وتم عقد القران بحفلة اقتصرت على الأخصاء ، وسلمت أم العريس المهر المتفق عليه إلى أم العروس ورجتها أن تستعجل فى تجهيزها ليكون العرس بعد شهر على الأكثر .

لم يكمل فرح أم أحمد بابنها لأنها أصيبت بسكتة قلبية قبل الزفاف

بأسبوع أودت بحياتها ، فكان من جراء ذلك أن ألغيت حفلة العرس ، وبعد مضى أربعين يوماً على وفاتها اتفق الطرفان على تعيين يوم الاثنين فى الرابع والعشرين من شهر آب ، لكى يأخذ أحمد زوجته إلى جبل لبنان لقضاء بضعة أيام فيه قبل سفرهما إلى صافيتا .

وفى اليوم المعين استيقظت دلال تبكى على فراق والديها وأختها الصغيرة ، وظلت تبكى وتنوح وأمها تساعدها فى ذلك حتى انتفخت أوداجها ، وتغيرت ملامحها . وبعد الغداء أتت ابنة عم لها لتساعدها فى إعداد الحقيبة ، فلما وجدتها على هذه الحال أنبتها كثيراً ثم أخذتها جانباً لتفهمها ما تجهله من الأمور والأشياء . . . وفى تمام الساعة الخامسة أتى أحمد إلى دار عمه ليأخذ عروسه وينفرد بها ، وكان شوقه كبيراً لرؤيتها والتمتع بجمالها الموصوف . ولكنه كان مضطرباً حائراً فى أمره : أيجدها فاتنة حقاً أم يجدها على غير ما يتمنى فيسكت على مضض ويقضى العمر كله إلى جانبها منغصاً حانقاً ؟ ؟ إنها لساعة حرجة تلك التى يمر بها الآن ، وكثيراً ما خالجت نفسه الظنون فى الفترة الماضية التى تلت يوم عقد القران . وكذلك أخته فاطمة فقد أحست بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقها بعد وفاة أمها ، وكانت تبتهل إلى الله أن يوفق بين أخيها ودلال وأن يجعله يراها آية فى الجمال ليبيض وجهها معه .

نفد صبر عريسنا من طول الانتظار ، ولكن ما إن بلغت الساعة

السادسة حتى دخلت عليه أخته ولحقت بها العروس الجميلة، ملقية نظرها إلى الأرض من فرط الحياء ، وفيما هما يتصافحان ، نظر إلى أخته وقد بدت على شفتيه ابتسامة الشكر والرضا ، فقالت فاطمة :

— « يجب أن تسافرا حالا لأن وقت الغروب قد حان ، ولا تنس يا أحمد أن تخابرنا غداً لنطمئن عليكما ، جعل الله أيامكما مباركة هانئة . »

وخرجت الشقيقة الحنون من الغرفة ودمع الفرح يترقرق فى عينيها . فنهض العريس وقبل يد عمه مستأذناً بالسفر ، وهكذا فعلت دلال والدموع تنهمر على خديها بغزارة ، فدعاها أحمد للخروج أمامه ولكنها لم تقبل ، وذلك لأنها لم تر فى حياتها قط رجلا يمشى وراء زوجته . . .

ظل أحمد يحادث عروسه طوال الطريق بكل لطف ورقة ، بيد أن الخجل والارتباك كانا يمنعانها من الإجابة إلا بنعم أو لا ، وكم تمنى لو تنظر فى وجهه لحظة غير أنها لم تجرؤ على ذلك بل كانت تنظر تارة إلى الطريق أمامها وأخرى إلى يديها المرتجفتين . فقال لنفسه : « يجب علىّ أن أكون لطيفاً ، طويل البال ، فلا بد أن تتعود على معاشرتى بعد أيام . »

وأخيراً وصلا إلى عالية فى الثامنة ليلا ، فتوجها إلى أحد فنادقها الضخمة وطلب عريسنا من مدير الفندق غرفة له ولزوجته ، فأجابه المدير :

– « إنى متأسف يا بك ، ليس عندنا غرف خالية الآن ، أو بغير حجز ، ويصعب جداً أن تجد مكاناً فى الفنادق اليوم لأننا فى أوج الموسم . »

بدا الوجوم على وجه عريسنا لهذا الخبر ، وفيما هو يشعل لفافة ، تدخل المحاسب فى الحديث وقال للمدير بأن السيدة التى كانت تشغل الغرفة رقم (٢١٥) قد أخبرته أنها مضطرة للسفر بعد قليل ، فعاد إليه المدير قائلا :

– « إن حظك لكبير يا سيدى ، غير أن الغرفة التى سنعطيك إياها هى غرفة بسرير واحد وبدون حمام . »

فقبل شاكراً وبعد أن ملأ القسيمة المعتادة فى الفنادق ، طلب فنجانين من القهوة وجلس مع عروسه الجميلة فى أحد أركان الصالة ، ولاحظ أن التعب بادياً على محياها النضر فطلب من الإدارة أن ترسل إليه طعام العشاء إلى الغرفة ، ثم ركب معها المصعد ، فدهشت من هذه الغرفة الكهربائية المتحركة ، وانتابها دوار خفيف . . . وبعد أن وصلا أفهمها أحمد ما هو المصعد ، وكيف يتحرك ولماذا أوجد . . . لأن عروسنا المسكينة لم تخرج فى حياتها من دمشق ولم تدخل فندقاً قبل اليوم فلا عجب أن استغربت أموراً كثيرة فى هذه الرحلة . وهكذا فقد ابتسمت لأول مرة مغتبطة لاكتشافها عالماً جديداً مليئاً بالمفاجآت . . .

أما أحمد ، فقد سحرته ابتسامتها الفاتنة ، وأخذ يقص عليها بعض الحكايات والنكات الطريفة إلى أن أتى الخادم بالعشاء ، فأكلا بهناء وطلب منها أن تنزع حجابها فى الغد قائلا :

— « لا يوجد هنا من يعرفنا يا حبيبتى ، فدعى المنديل الأسود لسوريا ، وسأشترى لك فى الغد غطاءاً ملوناً جميلا . إنى ذاهب إلى الحمام الآن ، فانتظرينى ريثما أعود . »

وبعد أن خرج العريس ، تنفست دلال الصعداء وخلعت ملابسها بسرعة فائقة ثم ارتدت قميص النوم الأزرق ووقفت على النافذة تتأمل الأنوار المتلألئة ، وتسمع صدى الموسيقى من هنا ، وضجيج السيارات من هناك . ولما عاد أحمد سألها فيما إذا كانت تريد أن تذهب إلى الحمام وأوصلها إليه ، وكان يبعد عن الغرفة مسافة عشرة أمتار تقريباً . وعاد إلى الغرفة ينتظرها .

انقضت عشرة دقائق تقريباً ولم تعد دلال ، ففتح الباب وذهب تواً إلى الحمام ولكنه وجد بابه مفتوحاً خالياً من العروس الحبيبة . . . وكانت الساعة بلغت العاشرة والنصف . فعاد إلى الغرفة مضطرباً ، ولكنها لم تكن فيها ، ثم خرج يمشى مثل التائه فى الممرات المقفرة ، ولكن بدون جدوى ، وكاد المسكين يجن وأخذ يفكر فى أمرها : « أهربت خوفاً منه ؟ ولكن إلى أين ؟ وهى لا تعرف أحداً غيره فى

هذه البلدة . . . » ثم هبط سلم الفندق مسرعاً وتوجه نحو المدير وخاطبه والدم يكاد ينفر من وجهه :

— « أتيت من دمشق مع عروسى كما رأيت يا سيدى ، وتعشينا فى الغرفة ، ثم ذهبت إلى الحمام ولكنها لم تعد ، فتبعتها بعد أن مضى ما يقرب من عشر دقائق على غيابها ، ولكنى وجدت باب الحمام مفتوحاً ، فبحثت عنها فى الممرات ثم عدت إلى الغرفة ثم إلى الحمام بلا جدوى ، فأين تكون يا ترى ؟ »

دهش المدير واستغرب أمر اختفائها وقال :

— « إنه لأمر عجيب يا سيدى ، وأنا لم أر امرأة خرجت من باب الفندق الذى أمامى منذ أكثر من نصف ساعة ، كما أننا لسنا مسؤولين عما يحدث فى نزلنا ، فهل تريد أن أخبر الشرطة عن الحادث ؟ »

— « كلا معاذ الله . إنها فتاة ساذجة لا تعرف أحداً هنا قط ، كما أنه لم يسبق أن سكنت فندقاً فى حياتها ، ألا يجوز أن تكون قد تشابهت عليها الغرف ودخلت غرفة غير غرفتنا » .

— « قد يجوز يا سيدى ولكن نزلاء فندقنا من أشهر الناس وأطيب الأسر ، تعالى لأريك قائمة الأسماء : تشغل الغرفة رقم ٢١٤ الأميرة المصرية ق . د . ويشغل الغرفة رقم ٢١٣ محافظ مدينة صيدا ، وأما جيرانك من الناحية الثانية فهم : المزارع السورى الكبير يوسف

إسماعيل فى الغرفة رقم ٢١٦ وهو ابن الزعيم الكبير إبراهيم بك ، كما أنه نزيل فندقنا منذ ستة أسابيع تقريباً ، وأما الغرفة رقم ٢١٧ فيقطنها قنصل تركيا فى بيروت ، ونحن لا نستطيع أبداً أن ندخل غرف نزلائنا هؤلاء فى الحادية عشر ليلا للتفتيش عن امرأة . . . »

وهكذا فقد عاد العريس الحائر إلى غرفته يضرب أخماساً بأسداس ، وأخذ يدخن ويفكر ، ويفكر ويدخن فى حالة جنونية مريعة . . . أما مدير الفندق فقد جمع الخدم والفراشين وسألهم فيما إذا رأوا امرأة هاربة من الفندق ، فنفوا جميعاً وعادوا إلى عملهم يتفكهون بقصة جديدة . . .

وما أن بلغت الساعة السادسة صباحاً حتى رن جرس الغرفة رقم (٢١٦) فأتى الخادم وإذا بإسماعيل بك يطلب فنجانين من القهوة وطعام إفطار لشخصين دون أن يفتح الباب ، فركض الخادم النبيه إلى المطعم يخبر المدير أن إسماعيل بك طلب فنجانى قهوة الآن مع طعام إفطار لشخصين ، فكيف ذلك وهو يسكن الغرفة منذ أكثر من شهر دونما رفيق ؟ ؟

أما إسماعيل بك فقد صحا من النوم قبل دلال وبدأ يسبح الخالق فى جمال تكوينها ويسائل نفسه عن سرها : لقد دخلت غرفته فى العاشرة والنصف من مساء أمس وكان قد أطفأ النور استعداداً للنوم

الباكر ، على غير عادة ، وإذا بالباب يفتح وبرائحة عطرية ناعمة تعبق فى جو الغرفة ، ولم يلمح إلا شبح امرأة فى ثوب حريرى طويل تقترب من السرير بأناة ثم تتمدد إلى جانبه فى الفراش . فلم يسعه وهو الشاب الثرى الشغوف بالنساء إلا أن يغازلها ويرحب بقدومها ويقول : « إنك ملاك هبط علىّ من السماء السخية . إنك لى وحدى يا حلوة الخ... »

فقد ظن أنها إحدى فتيات الفرقة الراقصة فى مقهى الفندق قد أعجبت به وسألت عن اسمه ورقم غرفته ثم أتت لقضاء ليلتها معه . . .

وهكذا فقد قضى معها ساعة لا تنسى ولكنه لاحظ أنها تختلف كثيراً عن النساء اللواتى تعود أن يقضى بعض لياليه معهن . . . فلم يستطع السكوت عن الأمر فسألها عن سبب بكائها ، وحكايتها ، ولكنها أدارت وجهها نحو الحائط وقد أخفته بذراعها ثم استسلمت بعد حين للكرى بعد أن استسلمت المسكينة للرجل الذى حسبته شريك حياتها ، كما علموها أن تفعل قبل السفر . . .

وفيما إسماعيل بك يحاول أن يوقظها ويلعب بشعرها الذهبى الحريرى ، رن جرس الهاتف ، فأخذ السماعة وسمع المدير يقول : « صباح الخير إسماعيل بك، أنا جان المدير هل يمكننى أن أعرف من يوجد معك فى الغرفة ؟ » فأجاب إسماعيل بك بصراحة : « أظن أنها إحدى بنات الفرقة اللواتى يرقصن فى الكباريه عندكم يا مسيو جان . »

فقال جان مذعوراً :

— « كلا يا سيدى . . . إن قصة هذه الفتاة مروعة للغاية ، فهى عروس وصلت ليلة أمس لقضاء شهر العسل مع زوجها أحمد بك مصطفى قائمقام صافيتا ، ولا بد أنها غلطت بين غرفة زوجها (الغرفة رقم ٢١٥) وغرفتك بينما كانت عائدة من الحمام إليها . »

— « العياذ بالله من هذا الخبر . إن أسفى لشديد يا مسيو جان ، لقد دخلت غرفتى فى الظلام وتمددت فى فراشى فلم يخطر لى ببال أنها صبية محترمة تائهة عن غرفتها دون أن تدرى ، ثم فوجئت بأنها فتاة بعد أن استسلمت إلىّ ، ولكنها رفضت أن تجيب على أسئلتى وبكت طويلا قبل أن تنام وهى لما تزل نائمة ، فأين زوجها ؟ »

— « إنه كالمجنون فى غرفته ، حائر فى أمره وأمرها ، وقد أخبرنى البارحة عن اختفائها وخاف أن تكون قد دخلت غرفة مجاورة بدلا من دخول غرفتها بالنظر إلى سذاجتها ، ولكنى أبيت أد أدخل غرف النزلاء للتفتيش عن امرأة . »

— « أرجو أن تخبره فى الحال عما حدث وقل له إنى مستعد أن أعقد قرانى عليها إذا كان يرغب فى الطلاق ، وأن أنفذ كل رغباته ، اذهب إليه حالا يا مسيو جان وأجبنى قبل أن تستيقظ المسكينة خوفاً من أن يصيبها مكروه من الذعر فيما لو علمت أنها قضت ليلتها الأولى

مع غير زوجها الشرعى . »

وجلس إسماعيل بك واضعاً كفيه على خدبه ، غارقاً فى بحر من الأفكار ، ثم نهض ودعى ربه أن يجعل هذه الفتاة الجميلة نصيبه فيتزوجها ويسعد بها ويكون قد نفذ رغبة أبيه الملحة فى زواجه . وفيما هو يحادث نفسه رن جرس الهاتف من جديد وإذا بالمدير يقول له :

ـ « قصيت الحكاية يا سيدى على أحمد بك ، فأجابنى فوراً بأنها طالق وقال إنه سيعود قبل ظهر اليوم إلى دمشق لتسجيل الطلاق وتسليم الفتاة إلى أهلها وأنت حر فيما تريد أن تفعله بعد ذلك . »

فرح إسماعيل بك كثيراً وأيقظ دلال بلطف ، ففتحت عينيها النجلاوين بثقل ، وما أن استشبهت بوجه جديد حتى حملقت فيه وصرخت باكية : « أين أنا ، من أنت ؟ » فقص عليها الحكاية بكل لطف وسألها فيما إذا كانت تقبل به زوجاً ، فرضخت للواقع الذى هو مشيئة الله ، ولم ينقض مساء ذلك اليوم حتى كان إسماعيل بك صهراً لحكمت أفندى الذى حمد الله وشكره على أن ابنته لم تقع فى أيدى لص شرير ؛ كما أنه عاهد نفسه على اللين فى تربية أختها الصغيرة خوفاً من سوء العاقبة . . .

حرمان

اجتمعا وتحابا وتعاهدا على الزواج . تلك هى المراحل الثلاث التى يمر بها كل شاب وفتاة تجذبهما قوة الحب الجارف ، وغالباً ما يتحقق الوعد بالزواج فتتم السعادة الوهمية المنشودة . . . غير أن الأقدار لم تشأ أن تحقق أمنية سميحة وكمال ، بل فرقت بينهما بعد عام قضياه على مقاعد الدراسة جنباً إلى جنب فى مدينة أكسفورد العلمية .

كان كمال شاباً جميل الطلعة ، ناعم القسمات ، وهو تركى الجنسية ، حفيد عثمان باشا إسماعيل أحد أغنياء أنقرة ووجهائها ، وكان يحمل اسم جده لأمه لأن صلة أمه بأبيه المصرى انقطعت عقب ولادته لاختلاف كبير نشب بينهما ، فهجرت سنية هانم زوجها الثرى الكبير وحصلت منه على طلاقها شريطة أن تحتفظ بابنها كمال وتنفق عليه . وهكذا كان ، فشب كمال وترعرع فى أسرة نبيلة ووجد فى محبة أمه وحنان جده ما عوضه عن محبة وحنان الأب . ولما تبين لسنية هانم ووالدها أن كمال ميال لدراسة الهندسة أوفداه وهو فى الثانية والعشرين إلى جامعة أكسفورد ليجنى منها ما يشتهى من الثمرات .

وكانت سميحة ، كريمة طلعت باشا محمود ، أحد كبار رجالات

مصر الإداريين ، مثال الفتاة المصرية الناهضة فهى تتحلى بصفات خلقية وخلقية عديدة منها ذكاء متوقد ومرح متأصل وجاذبية ساحرة . ومما دفع والديها لإرسالها إلى أكسفورد وهى فى العقد الثانى من عمرها ، ميلها الشديد للهندسة أيضاً وقد حصلت على شهادة الفلسفة قسم الرياضات بتفوق كبير .

أعجب كمال بسميحة وبإقدامها وبخفة روحها ، واستمالت سميحة رجولة كمال اليانعة المشوبة بالرقة التركية فتوثقت عرى الصداقة بينهما حتى أصبحا فى نهاية العام الدراسى الأول « عاشقين هائمين » وعادا كل إلى وطنه يحملان أطيب الذكريات وأمتعها ، يحدوهما الأمل باللقاء ثانية فى العام الدراسى المقبل ، حتى إذا أنهيا دراستهما حققا الوعد المنتظر بالاقتران .

وشاءت المقادير أن تجمع فى ذلك الصيف سميحة بصديق حميم لأبيها عاد مؤخراً من جولة طويلة فى أمريكا حمدى بك البارودى الثرى الكبير وصاحب المزارع الشهيرة فى القاهرة . اجتمعت سميحه بحمدى بك فى الإسكندرية حيث كانت تصطاف مع والديها وذلك يوم دعاه صديقه طلعت باشا لتناول طعام العشاء فى قصره أثر عودته من سياحته هذه ، وكانت السياحة سلوى حمدى بك الوحيدة منذ عشرين عاماً أى بعد أن صدمته الأقدار . فكان يلجأ إلى الرحلات الطويلة ترويحاً عن النفس .

وحدث أن أولع حمدى بك بسميحة ، وهو الرجل الذى كره النساء بعد الصدمة التى ذاق مرارتها وهو فى ربيع حياته . أجل أولع حمدى بسميحة منذ الساعة التى رآها فيها فأصبحت ملء قلبه وفكره .

وفى أثناء تردده على بيت أبيها حاول كثيراً أن يغزو قلبها بمختلف الأساليب بيد أنها كانت فى شغل شاغل عنه وعن الكهول أمثاله . . . . . إلى أن جاء اليوم الحاسم الذى ناداها فيه والدها إلى مكتبه وصارحها قائلا :

— « أصبحت الآن تعرفين يا سميحتى صديقى حمدى جيداً ، وأنت تعلمين أيضاً أنه من أعز الناس عندى وأقربهم إلى قلبى وهو من رجالنا النوادر نظراً لصفاته الحميدة ، وها هو قد تقدم البارحة لخطبتك ، فأبديت للأمر ارتياحى ووعدته أن أبحث معك وأجيبه غداً ، فماذا تقولين ؟ . »

— « أغرورقت عينا سميحة بدمع سخى لهول المفاجأة ، وانتابها شعور غريب ممزوج بالتمرد والطاعة ، وهى الفتاة الوحيدة التى تجل أباها وتكبره كل الإكبار . وبعد صمت بليغ قالت بصوت مرتجف خافت :

— « ولكنى لا أفكر فى الزواج الآن يا أبتاه خاصة وأنى لم أتم دراستى بعد . »

فقال الوالد بلهجة صارمة ، ظهر واضحاً لسميحة أنه حاول أن يجعلها مطواعة :

— « أما فيما يتعلق بدراستك فلقد استجبت لنزعتك فى الذهاب إلى « أكسفورد » وكنت خاطئاً فكنى ، وأما الزواج فهو غاية كل فتاة يا بنتى ، ولن أكون راضياً إلا إذا اقترنت بحمدى فهو خير إنسان يستطيع تقديرك وإسعادك ، ولا تنسى أن خبرته الواسعة فى الحياة ، ومركزه الرفيع ، وثروته الطائلة من الأسباب الجوهرية التى تساعده على تنفيذ ذلك . فكّرى ملياً بالأمر وأنا بانتظار الوقوف على جوابك صباح غد ، لأنه لا يليق أن نتأخر بالإجابة على طلب يصدر عن شخص مثل حمدى . »

ثارت سميحة على والدها ومجتمعها والحياة برمّتها ، حاولت كثيراً أن تجد منفذاً من هذه المشكلة دون أن تفلح ، وقد أفهمتها أمها أن والدها عزم أن يسحبها من أكسفورد إن تزوجت وإن لم تفعل لأنه لا جدوى من شهادة الهندسة مطلقاً خاصة وأنه لا يناسب قط أن تعمل بها يوماً ما نسبة إلى مكانة والدها ومراعاة لتقاليد عائلته التى يعتبر نفسه قد خرقها بإرسال وحيدته إلى إنكلترا طلباً للعلم . ولما قالت سميحة لأمها إن حمدى رجل مسن بالنسبة إليها أجابتها :

— « إنه فى الخامسة والأربعين أو دون ذلك ، غير أن روحه لم

يعترها فتور الكهولة فهو فى نشاط دائم ومرح مستمر ، ولقد أخبرنى أبوك أنه لا يرى سعادتك (وهو أكثر الناس حرصاً عليها) إلا فى عيشك مع رجل ناضج مثل حمدى ، وأنا أشاركه فى هذا الرأى لأنه لا خير أبداً فى شباب اليوم الناشئين على العبث والغرور. »

وفى صبيحة اليوم التالى رضخت سميحة لمشيئة والديها التى هى مشيئة الله ، وقد أيقنت أنه من المستحيل انتظار كمال ثلاث سنوات ريثما يكمل تحصيله ، وليس كمال بالقريب منها لكى تكون على صلة به تخفف عليها وطأة الانتظار الطويل . وبعد أن أجابت بكلمة « نعم » المقدسة خلت إلى نفسها تشكو وتئن ، وخطت إلى كمال الكلمة التالية :

كمال . . .

تلك أول وآخر مرة أراسلك فيها يا عزيزى لأن الدهر حكم علينا بالفراق بعد الوئام . أكتب إليك مودعة وقلبى يتفطر ألماً ، إذ حدث يا كمال ما لم يكن بالحسبان . تقدم لخطبتى منذ أيام أحد أصدقاء والدى الأثرياء ، رجل تجاوز العقد الرابع وأمسى قريباً من بلوغ الخمسين ، أنا لا أشعر بالحب نحوه ولا بالكره ، ولكنى أرغمت على قبوله شريكاً لحياتى بعد أن أعلمنى والدى قراره بوقف دراستى عند هذا الحد فحطم بذلك آمالى ! قبلت به إذاً شريكاً لحياتى خشية أن ينشر رفضى لطلبه الخصام والنكد فى دارنا ، فلم أستطع أن أخالف أمر والدى وأنا وحيدته

كما تعلم ومحط رجائه ، وأنت لما تزل تشيد أعمدة مستقبلك السعيد إن شاء الله .

أستودعك الله يا عزيزى ، راجية منه أن يجعل التوفيق حليفنا جميعاً ، وختاماً ثق يا كمال أن ذكراك ستبقى حية مزدهرة فى فؤادى طالما ينبض بالحياة .

الإسكندرية / ١٥ آب / ١٩٣٤

سميحة

وصلت كلمة سميحة إلى كمال فى يوم مشرق كان يفكر خلاله فيها ويمنى النفس بلقائها فكانت بمثابة نار محرقة تلتهم الأخضر واليابس ، وبعد أن خرج من حالة الذهول التى انتابته أرسل إلى سميحة كلمة تهنئة رقيقة ، وطوى صفحة غرامه الأول والأخير .

* * *

مرت أعوام طويلة على زواج سميحة من حمدى رزقت فى أوائلها طفلا جميلا أسمياه « نبيل » وكانت محاطة بعناية زوجها الفائقة ، حاصلة على جميع وسائل البذخ والرفاهية . أما أبواها فقد توفيا فى هذه الفترة وكان نبيل قد بلغ عامه الحادى عشر حينما أقدم يوم البعث . . . يوم ذهبت فى إحدى أمسيات كانون الأول لعام ١٩٤٦ برفقة زوجها إلى فندق « المينا هاوس » للترحيب بعائلة إنكليزية من أصدقائهما ولدعوتهما على

العشاء فى الغد ، فلم تصدق سميحة عيناها لما وقعتا على كمال جالساً على الشرفة مع رهط من الرجال .

جلست سميحة مع زوجها وأصدقائهما حول مائدة قريبة من المائدة التى كان يجلس عليها حبيبها الأوحد ، وبدأت تطيل النظر نحوها . . . مما لفت نظر كمال فوثب واقفاً من دهشته لهذه الصدفة العجيبة ، واستأذن من رفاقه وتقدم مبتسما من سميحة ، وبعد أن حياها ومن معها بادرته بالسؤال :

— أنت فى مصر يا كمال وأنا لا أعلم بذلك ؟

ثم نظرت إلى زوجها وأصدقائها وقالت :

— أعرفكم بالسيد كمال عثمان باشا إسماعيل ، صديقى فى أيام الدراسة فى أكسفورد .

— ثم خاطبت كمال قائلة :

— أقدم لك صديقينا مسز ومستر سميث وزوجى .

وبعد أن تم التعارف أجاب كمال على سؤال صديقته بقوله :

— أتيت مصر مع بعض الأصدقاء منذ أسبوع وبعد وصولى سألت عنك فى قصر والدك طلعت باشا القديم فأسفت لوفاته ولم أستطع زيارتك إذ ليس عندى علم بعنوانك الخاص فجاءت هذه الصدفة العظيمة التى سرتنى جداً . فكيف حالك ؟ وإلى أين وصلت الهندسة ؟..

حقاً إنك لم تتغيرى علىّ أبداً بعد أن مضى ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً لم أرك خلالها .

وبعد أن تحدثا قليلا وعلمت منه أنه يعمل مهندساً لبلدية أنقرة دعته لتناول الغداء فى الغد ، فاشترك معها حمدى فى دعوته والإصرار عليه بعد أن لبث مشدوهاً لا ينبس ببنت شفة . . . غير أن كمال اعتذر لأنه مدعو لقضاء يوم غد فى « المعادى » فحولت سميحة دعوة الغداء إلى العشاء فى « الأوبرج » حيث هى عازمة أن تذهب مع زوجها وآل سميث لحضور الحفلة الساهرة التى يقيمها الهلال الأحمر المصرى . ولكن كمال اعتذر أيضاً لسابق دعوة تلقاها من وزير تركيا وعائلته إلى الأوبرج أيضاً . وأخبرها شاكراً أنه مضطر لمغادرة مصر إلى تركيا صباح بعد غد ، واستأذن مودعاً لينضم إلى حلقة رفاقه .

عاد كمال بجسمه فقط إلى أصدقائه وقد ظل فكره وقلبه مع سميحة ، سميحة حبيبته الأولى التى اكتملت أنوثتها فزادتها فتنة وسحراً غير أنها فقدت شيئاً واحداً وهو مرحها ، فأين سميحة السيدة الهادئة المتزنة اليوم من سميحة الفتاة الضحوك اللعوب فى الأمس ؟ . . . يا لهذا الشيخ الذى يتمتع بنضارة شبابها من ثقيل بليد ، إنه يكرهه أشد الكره ، أما سميحة فإنها ولا شك تعسة ، محرومة من السعادة الحقيقية وذلك واضح بيّن من نظراتها الغائرة الحزينة .

ظل كمال يفكر فى سميحة طيلة ليله وفى السرور الكبير الذى يغمر نفسه حينما يلقاها ويتحدث إليها . إن جذوة حبها لم تزل تتقد فى أعماق فؤاده فكانت وما زالت العقبة الوحيدة فى طريق زواجه رغما من رغبة والدته الأكيدة فى ذلك وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره . حاول إخماد هذه الجذوة ، فلم ينجح إلى أن جاء اجتماع اليوم وكأنه ريح عاصفة لعبت بها فألهبتها . ومع بزوغ الفجر بعد أن ملكت ذكريات حب سميحة عليه عقله وحواسه ، تناول قلمه بيد مرتجفة وكتب لها ما يلى :

سمحائى . . . . . .

إن حبك آخذ أبداً بلبى . حاولت كثيراً أن أنساك دون فائدة فجاء اجتماع أمس وجدد هيامى . وأن ما شجعنى على كتابة هذه الكلمة الجريئة هو ذلك التفاوت المريع الذى لمسته بينك وبين ذلك الرجل المسن الذى زوجوك منه غصباً ، ورغبتى الشديدة فى إسعادك وبالتالى فى إسعاد نفسى بك . لقد شعرت يا سميحة بغمك وكآبتك من نظراتك وحركاتك ، فجئت لأقترح عليك مغادرة هذا الشيخ والسفر معى إلى تركيا غداً لنحيا حياة سعيدة طيبة بل لنحقق حلمنا الماضى الجميل .

إذا كنت موافقة على اقتراحى هذا ، فتعالى إلى محطة سكة الحديد فى التاسعة من صباح غد قبل موعد سفر قطار الإسكندرية بربع ساعة

ومن الإسكندرية يمكننى الحصول على جواز موقت لك فتقودنا السفينة مساءً إلى جنة الخلد المنشودة .....

أما إذا كنت خاطئاً فى ظنى يا سميحة فاعذرينى ... لأنى كتبت خاضعاً لسلطان قلبى الواجب واعلمى أنى طوع أمرك على كل حال .

كمال

فكر كمال فى طريقة إيصال هذه الرسالة إلى سميحة فذكر بشىء من الخيبة أنه يجهل عنوانها غير أنه سمع منها أنها ستكون فى « الأوبرج » هذا المساء يا لفرحه العظيم ! طوى الورقة ووضعها فى محفظته وهو متأكد من إيجاد طريقة سليمة توصلها إلى يديها الغاليتين .

أما سميحة فليتها لم تجتمع بكمال مجدداً وهى التى تعودت بعض الشىء على عيشها الممل بعد أن دفنت ذكريات الماضى على مضض ، وذلك لأنها بعد أن رأته يتألق شباباً ونضارة ندبت حظها المنكود ، وتحسرت على شبابها المدفون وأيامها التى تضيع سدى ، ولكن لا سميع ولا مجيب . حاولت أن تتكلم مع حمدى وأن تسأله رأيه فيه غير أنها أمسكت عن الكلام لما وجدته مقطب الجبين ، محنى الظهر فى السهرة غارقاً فى بحر التأملات حتى وكأنه يحاول حل مشكلة عاصية . سألته عما به فأجابها بأنه مصاب بصداع أليم وأنه يفضل الانسحاب إلى غرفته حيث يتناول مسكناً ثم ينام . وهنا شعرت سميحة بوحدتها أكثر من ذى قبل وليس

لها من رفيق سوى هذا الزوج الذى يطرق أبواب الشيخوخة وابنها نبيل الذى يقضى أكثر أوقاته فى معهد فيكتوريا « كولدج » فى الإسكندرية .

تظاهر حمدى فى النعاس وانسحب إلى غرفته ليطلق العنان لنفسه المعذبة وروحه المتألمة . إنه لا يستطيع أن يصدق أن ابنه كمال جلس إلى جانبه وعامله معاملة الغرباء ، يا لقساوة الأيام ! لقد شب كمال وأصبح رجلا دون أن يعرف أباه أو يحمل اسمه أو يصرف من ثروته ، وكذلك هو فلولا سماعه اسم عثمان باشا لما عرف فلذة كبده . فكر حمدى طويلا فى أن يسأل سميحة عن صديقها حينما قضت معه عاماً فى الجامعة ليشفى غلته ببعض الأخبار عن ولده فى فتوته ، بيد أنه أمسك عن السؤال خوفاً من زلة لسانه وقد قضى هذه السنين مع سميحة دون أن يفاتحها بأمر سنية امرأته الأولى أو ابنه كمال . ومما دفع حمدى للإصرار على كمال حتى يقبل دعوة زوجته هو شوقه إلى سماعه وحنينه إلى رؤياه وقد عطف عليه منذ أول نظرة .

وفى التاسعة من مساء الخميس كان كمال جالساً مع الوزير وزوجته وابنته وكله عيون شاخصة إلى الباب الخارجى الذى كانت تجتازه عشرات الرجال والسيدات الجميلات . وجه واحد هو كل ما يعنيه ولكنه تأخر عن الظهور . . . . .

اضطربت جوانحه خشية عدم حضور سميحة الحفلة ، وبعد

هنيهة أطلت مسز سميث وإلى جانبها حبيبته الغالية ، ولحقهما زوجاهما . كانت سميحة فى غاية الأناقة والرقة وهى تتهادى فى مشيتها الجملية بثوب مخملى أزرق ، فتضاعفت طرقات قلب كمال حتى خاف أن يسمعها جلساؤه لقوة وقعها فى صدره ، وبعد قليل جلست مع صحبها حول خوان محجوز لهم فى جهة نائية ، وكانت تفصل بين مائدتهم والمائدة التى يجلس عليها كمال ومضيفوه باحة الرقص .

وبعد أن تناول الساهرون طعام العشاء عزفت الأوركسترا موسيقاها الراقصة ، فانتشر الراقصون والراقصات والبشر يتدفق من وجوههم النيرة ، وكان بينهم كمال يراقص ابنة الوزير . وفيما هو يمشى ويدور تقدم بالفتاة من المكان الذى كانت تجلس فيه سميحة وحياهم مبتسما غير أن عينيه العسليتين علقتا فى عينى سميحة بقدر ما سمحت له أفواج الراقصين أن يطوف قريباً منها . وبعد انتهاء برنامج السهرة استأذن كمال من مضيفيه ليودع أصدقاء له قبل أن يغادروا الصالة ، وبمهارة فائقة أخرج من جيبه الورقة التى أودعها مصير حياته وطواها بشكل مربع صغير ووضعها فى كفه الأيمن ، ولما تقدم من سميحة وجلسائها بادرهم قائلا موجهاً الكلام لسميحة وزوجها :

ـ جئت أودعكم قبيل سفرى ، آملا أن تشرفونا إلى تركيا .

ومد يده ليصافح أولا سميحة وقد قبض على الورقة المقدسة بإبهامه ،

فشعرت سميحة بها وسحبتها من كفه بأصبعها بحركة خفيفة . وبعد أن عتبت عليه ودّعته للعودة إلى مصر مرة ثانية ، صافح الجميع وعاد إلى حيث كان .

اهتزت سميحة لما حدث ، وبحركة طبيعية أخرجت منديلها من حقيبة يدها وزجت فيها الورقة الغريبة ، وأصبحت أمنيتها الوحيدة أن تصل إلى دارها لتخلو إلى نفسها فتقرأ ما سطره قلم كمال لها . أتيح لها ذلك بعد حوالى نصف ساعة فى حمام غرفتها ، فضحكت ثم بكت . . . ضحكت لما علمت أنها لم تزل محبوبة كمال المفضلة ، وبكت لكثرة العثرات فى طريق الخلاص . وبعد أن أحرقت الورقة ، أوت إلى سريرها لتستعيد كلمات كمال لها (وقد حفظتها عن ظهر قلبها) ولتقرر مستقبلها .

وفى صبيحة اليوم التالى بعد أن ذهب حمدى لقضاء يوم الجمعة فى « عزبته » كالمعتاد وضعت سميحة بعض الثياب والحوائج الضرورية فى حقيبتها ، وسلمت البواب كتاباً مختوماً أوصته أن يعطيه لسيده فور عودته ، كتبت له فيه :

عزيزى حمدى :

حينما تطلع على رسالتى هذه أكون مبحرة إلى تركيا مع صديقى كمال ، الذى كنت عازمة أن أقترن به قبل أن تتقدم لخطبتى . إن نبيل قد أخذ نصيبه من حنانى وأصبحت أمه العطوف المدرسة الليلية

التى أرسلته إليها رغما عنى فحرمتنى إياه ، وهو سلواى الوحيدة . سامحنى يا حمدى على فرارى ولكنى صبرت طويلا ولم يعد بإمكانى أن أعيش فى الوحدة القاتلة .

لا أستطيع أن أودع نبيلا ، لاتدعه ينسانى ، ولك منى خالص الامتنان على ما أحطتنى به من محبة وإكرام .

سميحة

وصل حمدى من العزبة فقدم له البواب رسالة سميحة ولا تسل عما أصابه بعد أن فضّها واطلع على فحواها ، غاب عن الدنيا وعن نفسه وقال غاضباً لا بد أن يكون للأيام ثأر علىّ ، فلقد حرمتنى ولدى أولا ولما شبّ ولدى سلبتنى امرأتى : ثم ذهب على غير هدى إلى دائرة البرق والبريد وأرسل إلى سنية البرقية التالية :

« فرت امرأتى مع ولدنا كمال أثناء غيابى . تصرفى فى الأمر كما تشائين » .

حمدى البارودى

وبعد ساعة من الزمن وصلت برقية ثانية إلى سنية هانم هذا نصها :

« بشراى لك أنى واصل إلى مرفأ إسطنبول فى السابعة من صباح الأحد أنا وهديتى لك خطيبتى سميحة كريمة المرحوم طلعت باشا محمود رفيقتى فى أكسفورد فإلى الملتقى .

كمال

فاستعرضت سنية هانم الماضى البغيض وذكرت أنها سمعت بزواج حمدى منذ سنين طويلة ، وأنها أخفت الأمر على كمال الذى حمل اسم جده دون أن يكون له أى اتصال مع أبيه .

فظهر لها ما جرى واضحاً جلياً ، وسرت فى عروقها قشعريرة باردة . . . . . وبعد أن استقبلت العاشقين رغبت فى التحدث إلى كمال فى غرفتها ، فبادرها معاتباً على فتورها فى مثل هذا اليوم السعيد الذى قرر فيه عقد قرانه على سميحة. فأصغت إليه بتؤدة، وقالت بصوت متهدج وهى تقدم له برقية والده :

— « كيف يجوز أن تقترن بها وهى امرأة أبيك يا كمال ؟ . . . »

الغفران

لجى دوموباسان

نشأت وترعرعت فى أحضان أسرة من تلك الأسر المنكمشة على نفسها ، المنزوية عن الغير ، البعيدة عن كل شىء خارجى ، إن أمثال هذه الأسر ، تجهل الأحداث السياسية ، على أنه يمكن التحدث فى موضوعها على المائدة ، ولكن تبديل الحكومات أمر يحدث بعيداً عن الجو العائلى ، لدرجة تجعل التكلم عنه مثل التكلم عن حادث تاريخى كموت لويس الرابع عشر مثلا أو نزول جيوش نابليون من مراكبها إلى البر

قد تتغير العادات وتتعاقب الموضات ولكن الأسرة الهادئة التى تتمشى على التقاليد القديمة ، لا تشعر بمثل هذا مطلقاً . وإذا ما حدثت قصة خطرة فى الجوار ، فالفضيحة تموت على عتبة الباب ، والأم والأب يعلقان وحدهما فى المساء على الحادثة بصوت خافت ، لأن للحيطان آذاناً ، غير أن الأب يقول برصانة :

— هل سمعت بقصة عائلة الريفوال المخيفة ؟

فتجيبه الأم :

— من كان يصدق ذلك عنهم ؟ يا للفظاعة ! !

وهكذا يشب الأطفال وهم لا يشكون فى شىء ، ولا يحسبون لمكر القدر وخفايا الحياة ، حساباً كما أنهم يجهلون أن الإنسان لا يتكلم كما يفكر دائماً ولا يفعل ما يقوله أحياناً ، ويجهلون أيضاً أنه يجب أن نعيش بسلام مسلح وأن المغفل الساذج يقع دائماً فى الشرك ، وأن المخلص بين الناس معرض للغدر والطيب فيهم تساء معاملته .

وينقسم هؤلاء لى فريقين : فريق يذهب حتى الموت فى عماه ، وقد أغلقت أعنيه الأمانة والاستقامة والشرف وفريق يصحى من عماوته على غير هدى ، فتزل خطاه وهو ضائع ميؤوس ، يموت وهو حاسب أنه كان ألعوبة قدر استثنائى وضحية أحداث مشؤومة ورجال مجرمين .

زوجت أسرة السافينيول ابنتها برت — وهى فى الثامنة عشرة ، فاقترنت الفتاة بشاب من باريس يشتغل فى البورصة ، وكان جورج جميلا ، حلو الحديث أما مظاهره فلم تكن تدل لا على الأمانة والشرف ، وهذا هو المطلوب . ولكنه كان يسخر فى باطنه من أهل زوجته المتأخرين ، وقد لقبهم بأعزائه الرجعيين .

كان جورج بارون من عائلة ظبية ، وكانت الفتاة برت غنية جداً فصحبها إلى باربس لتصبح فى عداد القرويات الكثيرات فيها ، ظلت

برت تجهل المدينة العظيمة وملاهيها وساكنيها وأناقتها كما كانت تجهل الحياة وأسرارها وخداعها . فبقيت محصورة فى الدار ، لا تعرف من باريس إلا المنطقة التى تقطن فيها وكثيراً ما خيل إليها إذا ما سارت فى حى غير حيها أنها قامت قامت برحلة طويلة فى بلدة غربية إذ كانت تقول لزوجها فى المساء :

ـ لقد اجتزت الشوارع اليوم ! ! »

كان جورج يصحبها مرتين أو ثلاث فى العام إلى المسارح وكانت هذه السهرات أعيادا عظيمة تجعلها تتحدث عنها بلا أنقطاع . وقد وقد يحدث بعد أشهر ثلاث من سهرة فى المسرح أن تنقطع برت عن الطعام لتغرق فى الضحك وتقول :

ـ هل تذكر الممثل الذى كان يرتدى بزة قائد حينما بدأ يحاكى صياح الديك ؟ ؟

لم تعاشر برت سوى عائلتين ساذجتين،كانتا تمثلان العالم بأسره نسبة التى تفكيرها . وهكذا تمتع زوجها بمطلق حريته وكان يعود إلى الدار حسب هواه وأحياناً مع بزوغ الفجر ، وهو متأكد أنه لا يمكن أن يخامر الشك هذه الروح البرئية ..

وذات صباح تلقت برت رسالة مقفلة ، وقعت عليها وقع الصاعقة . فحارت فى أمرها : أتصدق ما جاء فى الرسالة أم تحتقرها ؟ ولكن مرسلها

يقول أنه كتب ينبهها حرصاً على سعادتها ولأنه يمقت الشر ويحب الصدق والخير .

تقول الرسالة أن زوجها مغرم منذ عامين بأرملة شابة تدعى مدام روسيه وأنه يقضى سهراته كلها فى — دارها . لم تحسن برت التجاهل ولا التحرى عن أفعال زوجها ولا اللجوء إلى الحيلة ، بل قذفت بالرسالة على المائدة حينما أتى للطعام وانتحبت هاربة إلى غرفتها . وما كان من جورج إلا أن فكر ملياً بأمره وأمرها ثم دخل غرفتها باسماً وأجلسها على ركبتيه وقال بهدوء تشوبه نبرات الاستهزاء .

— صحيح أنه لدىّ صديقة تدعى مدام روسيه يا عزيزتى الصغيرة وأنا أعرفها منذ عشر سنين كما أنى أعرف أكثر من عشرين عائلة فى باريس لم أذكر شيئاً عنهم أمامك لأنك لا ترغبين فى مخالطة الناس وتكرهين الحفلات والتعارف ولكن أرجو أن ترتدى أحسن ثوب عندك بعد الغداء لكى نذهب لزيارة مدام روسيه التى ستصبح حتما — صديقتك المفضلة ، فانا أريد التخلص من أمثال هذه الوشايات الشنيعة .

قبلت برت زوجها بحرارة وقد دفعها حب الاستطلاع إلى قبول زيارة هذه المرأة المجهولة التى لم تزل تشك فى أمرها . بيد أن شعوراً خفياً جعلها تظن أنها تلافت اليوم خطراً كاد أن يداهمها .

دخلت برت مع زوجها إلى دار صغيرة ، مزينة بذوق وفن تقع

فى الطابق الرابع من بناية جميلة . وبعد انتظار دام خمس دقائق فى بهو أظلمته الستائر الأنيقة فتح الباب وظهرت امرأة شابة قصيرة القامة تحالكة السمرة وعلى شفتيها ابتسامة تعجب . قدم جورج زوجته وقدم لها مدام جولى روسيه فأقبلت صاحبة الدار نحو ضيفتها مسرورة مفتوحة الذراعين وقالت إنها لم تكن تأمل أن تحظى برؤية مدام بارون إذ تعلم أنها لا ترى أحداً ، وكم هى سعيدة الآن ؛ ثم قالت بدون تكلف أنها تحب جورج كثيراً وانها كانت فى شوق زائد لمعرفة زوجته الشابة لتحبها أيضاً .

وبعد ما يقرب من شهر واحد لم تعد تتفارق الصديقتان أبداً . اصبحتا على اتصال دائم وأما العشاء فقد تم الاتفاق على تناوله ليلة فى دار مدام روسيه وأخرى فى دار برت . ولم يعد جورج يتغيب كثيراً عن الدار ، بل أصبح يلازمها أكثر الأوقات ويقول : إنه يعبد زاوية الموقدة فى بيته . ولما خلت شقة للسكن فى البناية التى تقطنها جولى استأجرتها برت حالا لتصبح أقرب إلى صديقتها وأكثر اتصالا بها .

دامت صداقتهما على هذا المنوال عامين كاملين وكانت صداقة ودية قلبية وروحية لا شىء مطلقاً يعكر صفوها . وأصبح من المحال أن تتكلم برت دون أن تلفظ اسم جولى الذى كان يمثل الكمال . وهكذا شعرت برت — بالطمأنينة والهدوء وشعرت بأن سعادتها اكتملت .

وبعد ذلك أصيبت جولى بمرض شديد فلم تفارقها برت إبانه لحظة واحدة . كانت تقضى الليالى إلى جانبها متأثرة حزينة كما أن جورج بدا بائساً مغتما . وذات صباح أخبرهما الطبيب أن حالة المريضة أمست خطرة جداً فمكثا مذعورين وجهاً لوجه وانتابتهما نوبة بكاء حادة . قضيا الليلة المشؤومة ساهرين إلى جانب السرير فكانت برت تقبل صديقتها بحنان بين وقت وآخر بينما كان جورج واقفاً تحت قدمى المريضة يتأملها باستمرار . وفى اليوم التالى ازدادت حالتها سوءاً غير أنها صحيت فى المساء وأرغمت صديقتها على النزول إلى دارهما لتناول الطعام ، وقد صرحت بتحسن كبير فى صحتها . لم يذوقا طعم الزاد بل كانا جالسين فى غمرة من الحزن حينما دخلت الخادمة وسلمت جورج غلافاً . فضّه بسرعة وقرأ ما فيه ثم شحب لونه ونهض وقال لزوجته بلهجة غير معتادة .

ــ انتظرينى يجب أن أتغيب قليلا سأعود بعد عشر دقائق وحذارى أن تخرجى من الدار .

ثم أسرع إلى غرفته ليأخذ منها قبعته .

انتظرته برت بقلق وجزع وقد امتنعت عن زيارة صديقتها تمشياً على الطاعة المعتادة ولما طال غيابه فكرت فى دخول غرفته لترى فيما إذا أخذ قفازيه ، الأمر الذى يعنى أنه ذهب إلى مكان بعيد . وقع نظرها ــ عليهما فوراً ورأت قصاصة ورق متجعدة على الأرض عرفت أن هذه

الورقة هى التى كانت فى الغلاف الذى فضه جورج قبل مبارحته الدار فشعرت بدافع قوى ، لم تشعر بمثله من قبل لأن تقرأ فحواها وتعلم . كان ضميرها الثائر يقاوم بينما كان الفضول المشوب بالألم يدفع يدها لتناول الورقة فأمسكت بها وعرفت خط جولى المضطرب وقرأت : « تعال قبلنى وحدك يا صديقى البائس ؛ إنى على مقربة من الموت . »

لم تفهم برت شيئاً لأول وهلة ، بل ظلت رابضة فى مكانها كالبلهاء وقد أثرت فيها فكرة الموت . ثم لاحظت أن المخاطبة كانت بالمفرد وكأن وميض برق أتى ليضىء حياتها ويريها الحقيقة الوضيعة وخيانتهما وخداعهما ففهمت أن مكرهما كان طويلا وأنهما قد غشا سلامة نيتها . تذكرت نظراتهما واستعادت ذاكرتها السهرات التى كانا يجلسان فيها جنباً إلى جنب تحت المصباح وكيف كانا يقرآن فى كتاب واحد ثم كيف كان يلتقى نظرهما فى نهاية كل صفحة . وشعرت أن يأساً لا حدود له قد استولى على قلبها الذى حطمه الألم ومزقه القرف والاشمئزاز .

سمعت وقع أقدام فى الدار فلجأت إلى غرفتها وإذا بزوجها ينادى قائلا :

ــ تعالى بسرعة إن مدام روسيه تنازع .

فوقفت أمام الباب وقالت وشفتاها ترتجفان

ــ عد إلى جانبها وحدك إنها ليست بحاجة إلى .

نظر إليها بجنون وقد خبله الحزن ، ثم قال :

– أسرعى ، أسرعى ، أنها تموت .

فأجابت برت :

– انك تؤثر لو كنت أموت بدلا عنها .

ولعله فهم ما حدث إذ صعد عائداً إلى جانب المنازعة ، ثم بكاها بلا حشمة أو كتمان ولم يبال قط بآلام زوجته التى لم تعد تكلمه ولا تنظر إليه . كانت برت تصلى كل صباح ومساء وتعيش منفردة مشمئزة غاضبة ثائرة . وهكذا كانا يسكنان داراً واحدة ويأكلان وجهاً لوجه صامتين يائسين . ثم خفف جورج من أحزانه بعد حين بيد أن برت لم تغفر له مطلقاً . عاشا عاماً كاملا غريبين بعيدين واستمرت الحياة قاسية عليهما ؛ أما برت فلقد كادت تجن لهذه الحال .

وذات صباح غادرت الدار مع الفجر وعادت تحمل بكلتا يديها طاقة كبيرة من الورد الأبيض الناصع ثم أرسلت من يقول لزوجها أنها تود محادثته . فجاء مضطرباً قلقاً ، فقالت :

– سنخرج معاً الآن خذ عنى هذه الورود لأنها ثقيلة على .

فحمل باقة الزهور وتبع زوجته . كانت فى انتظارهما عربة سارت مسرعة بعد أن امتطياها إلى أن وقفت أمام المقبرة فقالت برت وقد امتلأت عيناها بالدمع :

ـ أوصلنى إلى قبرها .

كان جورج يرتعد بشدة فسار أمامها وعلى ذراعيه باقة الأزهار ، وأخيراً وقف أمام قبر أبيض وأشار ليه دون أن ينبس ببنت شفه ، فأخذت الباقة الكبيرة منه وركعت ثم وضعتها على القبر وانفردت فى صلاة ملحة متوسلة غريبة . وكان جورج واقفاً يبكى وراءها وقد عاودته الذكريات ثم نهضت برت بعد الصلاة ومدت له يديها قائلة :

ـ سنصبح بعد الآن صديقين ، إذا شئت .

لقاء

جمعتنى سهرة عائلية بطبيب يعمل فى « المستشفى الوطنى » وهو مستشفى الحكومة فى دمشق ، وذلك فى صيف عام ١٩٤٥ بعد انقضاء العدوان الفرنسى على المدينة بشهرين . دار الحديث حول أيام العدوان المفجعة ولياليه المروّعة ، وما كان من الدكتور سامى إلا أن أشعل لفافة تبغ ثم قال بصوت مرتعش وقد بدا التأثر على ملامحه :

« سأقص على مسامعكم أيها الإخوان حادثة غريبة حضرت المشهد الأخير منها وكان مؤلماً لا أستطيع نسيانه مهما حييت . وما أكثر الحوادث الغريبة والفواجع المريرة التى جرت فى دور دمشق المطمئنة يوم قذفها الفرنسيون بقنابلهم ! كنت فى المستشفى الوطنى ساعد بدء العدوان ، وأنتم تذكرون أنه وقع فى الساعة السابعة من مساء التاسع والعشرين من أيار الماضى ، وبقيت فيه مع زملائى الأطباء لنقوم بواجبنا فى ذلك الظرف الحاسم . ولا بد أنكم تقدرون أيضاً أننا لم نذق طعم الراحة أو النوم ، نحن معشر الأطباء ، إبان أيام ذلك العدوان الثلاثة ولياليه ، لأن الجرحى كانوا يفدون على مستشفانا بالعشرات ، وجلهم فى حالات

خطرة ، فغصت بهم الغرف والقاعات واضطررنا لوضع الأسرة فى الممرات أيضاً . حاولنا أن نتلافى الفوضى ، فتقاسمنا العمل فيما بيننا وبذلنا أقصى جهدنا لتقديم الإسعافات بسرعة فائقة ، فكنا نعمل مع الأطباء والمساعدين والممرضات فى جو محموم يلتى الذعر فى النفوس . لم نكن نسمع إلا أزيز الرصاص من الخارج وأنين المصابين من أطفال وشيوخ ونساء لم نفرق بين كل منهم وذلك بوضع الرجال معاً والنساء فى أماكن خاصة ، لشدة الازدحام . وفى حوالى الساعة التاسعة من ليلة العدوان الأولى مررت بقاعة كبيرة لأ تفقد فيها الضحايا الأبرياء ودنوت من سريرين متجاورين كانا يحضنان شاباً من طلاب الطب الذين أعرفهم وفتاة سمراء فاتنة . باشرت فحص شيخ نائم فى جوارهما وفيما كنت أعاينه سمعت حواراً خافتاً كانت تقطعه مرة آنات الشاب وأخرى زفرات الفتاة . سمعت الشاب يقول :

ــ أحمد الله الذى جمعنا أخيراً يا حبيبتى ، أراك متألمة باكية ، طمئنينى أين أصبت ؟

فأجابته الفتاة وقد استعانت على الكلام بشدّ خصلة من شعرها المسترسل الجميل :

ــ الإصابات فى صدرى يا عبد الكريم ، ولكنى لا أريد أن أموت الآن ، فهل يمكن أن نشفى ونحقق حلمنا ؟ وأنت أين أصبت ؟

— إن رأسى يدمى ، وأشعر كأنه يفور ، ولكن ساقى هى التى تؤلمنى .

ثم قطع كلامه بصرخة مدوّية قال فيها (آخ) وقد آلمته جراحه لأنه حاول أن ينقلب على جانبه الأيمن ليتمكن من رؤية فتاته جيداً . وكأنها شعرت بألمه فقطبت حاجبيها وشحب لونها . ثم استأنف عبد الكريم كلامه والعرق يتصبب من جبهته .

— سنعيش يا سعاد ، دون ما فراق إن شاء الله .

وعندئذ تقدمت منهما وكنت قد أنهيت تضميد جرح فى ذراع الشيخ ، وناديت الطبيب الذى كان يساعدنى ليهتم بالفتاة لأنى بدأت فوراً بفحص تلميذى الشاب عبد الكريم ج . . . وبعد دقائق معدودات أبلغنى زميلى بصوت خافت أن الفتاة ماتت من أثر نزيف داخلى فى صدرها . نظرت إليها والدمع يطفر من مقلتى فرأيت مسحة ابتسام تعلو وجهها الملائكى . علم الفتى بموتها فلم ينبس ببنت شفة ولكنه ذرف عليها دموعاً حارة . نقلناه إلى غرفة العمليات وما إن انتهينا من عملية خطيرة فى رأسه وباشرنا إخراج الشظايا من ساقه حتى فارق الحياة بدوره بين أيدينا . . . »

دبّ الوجوم فى الغرفة التى كانت تجمعنا ، وبدا التأثر على وجوهنا جميعاً ومكثنا بين مطرق وباك لا يقوى أحد منا على الكلام بيد أن

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

الدكتور سامى استأنف حديثه وقال :

ـ « هذا ما شاهدته بأم عينى أيها الأصدقاء ، غير أن لقصة هذين العاشقين بداية طريفة وقفت على حوادثها فيما بعد ، مفادها أنهما كانا يقطنان فى حى واحد ويتبادلان حبًّا صامتاً منذ عامين . وقد فاتح عبد الكريم أباه برغبته فى الزواج من ابنة جارهم السيد ن . ف . فوعده أن يطلب له الفتاة من أبيها عند ما ينال شهادة الطب فى نهاية العام المقبل . أما أبو الفتاة السيد ن . فهو متعصب جدًّا وكان يخاف على وحيدته الجميلة من لفحات النسيم ، لذلك اقتصرت علاقتها بفتاها المحبوب على نظرات قليلة كانا يتبادلانها من شرفات داريهما المتقابلتين أو إذا تصادف واجتمعا فى الطريق . كانت سعاد تمشى برفقة عمتها المسنة على الدوام ، لأنها فقدت أمها وهى وليدة أيام ، وكانت تتورد وجنتاها إذا ما رأت عبد الكريم قادماً وتحول طرفها عنه خشية أن تشعر عمتها بشىء . وقد علمت سعاد أن أهل عبد الكريم يريدونها زوجة له ، لأنها صرحوا بذلك لعمتها ، ففرحت كثيراً وقتئذ بيد أنها لم تتظاهر بمعرفة شىء خوفاً من أن يساء الظن بها .

ولما بدأ الفرنسيون عدوانهم الأهوج على العاصمة السورية كان أبو الفتاة خارج المنزل ، فشرعت سعاد فى إغلاق خشب النوافذ مع عمتها خوفاً من تسرب الرصاص إلى الغرف ، وبينما كانت تغلق نافذة

غرفتها كان عبد الكريم يفعل ذلك فى غرفة أبيه المقابلة لها ، فابتسم وحياها لأول مرة بحياء شديد ، ثم أخبرها أنه قادم مع أسرته للالتجاء فى قبو منزلها ، وأغلق النافذة وتوارى . . . حارت سعاد فى أمرها وهالها مجىء عبد الكريم وأهله إلى الدار لأنها خشيت أن يعود أبوها ويراهم ماكثين نساء ورجالا معاً . ثم ماذا ستفعل عمتها إذا ما رأتهم داخلين عليها ، عمتها المتحجبة المتعصبة ؟ ؟ ؟ كلا ، لا يجوز أن يطرقوا الباب وأبوها غائب عن الدار ! فكرت سعاد قليلا فى نفسها فوجدت أنها راغبة فى لقاء عبد الكريم وسماع صوته ومحادثته ولكن الشجاعة تنقصها والحياء يكبلها ، فدفعها الخوف من غضب أبيها على حبيبها وأهله إلى فتح باب المنزل ، فى غفلة من عمتها ، لتمنع عبد الكريم من اللجوء إلى دارها مع أسرته فى مثل هذه الساعة وقبل عودة أبيها . وكانت الساعة وقتئذ قد تجاوزت الثامنة ليلا . وفيما هى خارجة من الدار كان عبد الكريم سائراً نحوها ، ثم فتح باب منزله وبدا والده وأخوته متأهبين للحاق به وقد أقنعهم بضرورة مغادرة منزلهم الخشبى واللجوء إلى قبو الجيران خوفاً من القنابل والحريق . رأته سعاد قادماً ، فرفعت يديها لتؤشر له بأن يعود أدراجه مع أسرته ، وما كادت تلفظ أول كلمة حتى وقعت قنبلة فى الشارع بينهما فأصابتهما شظاياها ووقعا على الأرض .

سمعت العمة صوت الانفجار فنادت ابنة أخيها دون أن تلقى جواباً ،

ولما رأت باب المنزل مفتوحاً اقتربت منه مذعورة لتسأل الجيران عما جرى وقد سمعت ضوضاءهم في الشارع . وما إن أطلت على الطريق حتى رأت سعاد ملقاة على الأرض لا حراك بها . صرخت العمة مستنجدة ، وفيما هي تبكي وتستغيث مرت سيارة الإسعاف ونقلت المصابين إلى المستشفى . وهناك جرى ما قصصته عليكم في بدء حديثي ، وكان لقاؤهما الأول والأخير بين أفواج الجرحى وأكوام الموتى في آخر ساعة من حياتهما المليئة بالأماني والآمال ، ومن يدري ؟ لعلهما التقيا هنالك ، في العالم الثاني ، لقاءاً ما بعده فراق ؟ . . . »

ثوب السهرة

لادمون سعد

إن شعلة الأنوار التى كانت تتبع حركات المغنية دون أن تضىء صوتها الكامح ، أشعلت شرارة إلى جانبى .

كنت متأكداً قبل هنيهة أنه لا يوجد أحد على المائدة المجاورة لمائدتى . وها قد أطلّت هذه الفتاة الآن وجلست بجوارى وكأن أشعة النور قد سحبتها من العدم .

كانت شقراء ذات شعر متوهج ، وكم بدا وجهها شاحباً تحت ضياء الشعر ، وجه طفلة لم تتجاوز الثامنة عشرة . كانت لها عينان زرقتهما قاتمة وفم ذو شفاه بارزة قد ارتسم عليه ابتسام مطبوع بحزن يخيل إليك أن لا شىء يستطيع تبديده .

ماذا جاءت تفعل هذه الفتاة اليانعة فى مثل هذه الحانة ؟ ومن تنتظر يا ترى ؟ ومما أثار تعجب الحاضرين أن كتفيها كانا عاريين . أما ثوب السهرة التى كانت ترتديه فهو أبيض ناصع وبسيط جداً يجعل الناظر إليه يكتشف تقاطيع جسمها الفتى المنسجم .

لم أستطع تحويل طرفى عن هذه الجنية التى كانت تمص عصير

الرمان بهدوء كنت أنظر إليها بالنهم الذى نشعر به أمام الأشياء التى لا نقدر أن نملكها أبداً . . . ماذا سيحدث إذا ما ذهبت . . . وتوارت عن الأنظار . . . ؟ لا أستطيع احتمال هذه الفكرة .

تقدمت من مائدتها ودعوتها للرقص فنهضت دون أن تجب . كانت خفيفة لدرجة جعلتنى أشعر أكثر من مرة أنى أتحرك بمفردى فى باحة الرقص . وكنت أضغط على جسمها الرقيق فتلمس وجنتى خصل شعرها فأقول لنفسى بنشوة (أنها حية حقاً ، إنها بين ذراعى) .

ثم تجاسرت ودعوتها للعشاء فقبلت بكل بساطة شريطة أن أوصلها فى نهاية السهرة إلى المكان الذى تدلنى عليه . وأن أقسم ألا أحاول متابعتها ففعلت وتهيأ لى أنى أعيش قصة من قصص الجن الخيالية ؟

طلبت منها تبديل عصير الرمان بالشامبانيا فرفضت ضاحكة ، بيد أن ضحكتها كانت مشوبة بحزن لم أتمكن من فهمه .

حاولت كثيراً أن أسبر غور شخصية رفيقتى أثناء اجتماعنا سوياً غير أنها كانت تجيب على جميع أسئلتى بهذه العبارة :

« وما الجدوى من ذلك ! »

لم أكن مرتاحاً بل كنت أشعر أن كل ذلك باطل وأنى سأصحو عما قريب ، غير أنى كنت أرى فى متناول يدى كتفيها — البيضاويين وشعرها الجميل . وقلبها النابض . . . وحينما كنت أقترب من الفتاة ،

انصب قدح الرمان على ثوبها الأبيض فى حركة اضطراب غير متزنة . . . فصاحت أورنيللا (آه) لقد تلوث ثوبى ماذا ستقول جدتى ؟ (لم أعلم كيف أجعلها تغفر لى غباوتى ؛ وَعدتُ أن أقدم لها ثوباً آخر ، بل عشرة أثواب . . . فضحكت وقالت : « هذا لا يهم ، يجب ألا نعكر صفو سهرتنا ، قم لنرقص لأنى أحب كثيراً القطعة التى تعزفها الجوقة الآن . »

وجرفنا تيار الرقص السحرى مجدداً .

ساعات جذابة مرحة انقضت وكأنها حلم . . . أو لم يكن حلماً ذلك الوجه الذى أراه يشحب أثناء الرقص ثم يمتقع ؟

كانت أوهامى تدوم هنيهات معدودة وكنت أشعر خلالها أن رائحة غريبة كانت تطوقنى وتجعل الدوار ينتابنى . وكانت عينا الفتاة تسائلنى قائلة :

— « ماذا حدث لك ؟ »

فأجيب :

— « لا شىء ، بل لامستنى رائحة غريبة وكأنها لفحة ريح مصقعة . . . دعينى أفكر بشىء آخر . »

ثم كنت أشم ملء رئتىّ رائحة الفتاة العذبة .

— « أليست رائحتى حلوة ؟ »

– « إنى أستنشق منك رائحة الشباب والسعادة والحياة . »

فرددت بهدوء :

– « الشباب والسعادة والحياة . . . وامتلأت عيناها بالدمع . »

وفى حوالى منتصف الليل قالت لى أورنيللا (لقد حان وقت العودة) فرجوتها أن تبقى برهة ثانية ولكنها قالت :

– « كلا ! لقد حان الوقت ، إنها تنتظرنى فى الطريق ، مثلما فعلت آخر مرة . »

فسألتها مستغرباً :

– « ومن ينتظرك فى الطريق ؟ » فأجابت :

– « لا يمكنك أن تعلم ، فلنذهب ، أرجوك فلنذهب . »

قبلت على مضض ومكثنا فى عربتى وبدأت أورنيللا تدلنى على الطريق . كانت تقترب منى شيئاً فشيئاً وكأنها تبحث عن ملجأ يبعد عنها خطراً مداهما فحاولت أن أطمئنها بأنه لا يستطيع أحد قط أن يؤذيها طالما أنا على قيد الحياة .

من ترى كانت هذه العدوّة القوية المجهولة التى ترتجف الفتاة خوفاً منها ؟ شعرت بشىء من الاضطراب إذ لاحظت أننا خرجنا من المدينة ثم سمعت صوتاً صغيراً خافتاً يتوسل ويقول : « ستحمينى ، أليس كذلك ؟ ستبقينى إلى جانبك ؟ »

ـ « لا تخشى شيئاً يا عزيزتى » هكذا أجبتها قلقاً ، وضممتها إلى صدرى وقبلتها . . . فكانت شفتاها باردتين . . .

وصلنا إلى مفرق واسع اتخذت الطريق بعده شكل منعطف خطر حينما صرخت أورنيللا صرخة داوية . نظرت إلى وجهها الذى علاه الشحوب ثم أوقفت السيارة قلقاً وكانت قد أغمى عليها . لم أفهم سبب خوفها فالطريق كانت مقفرة والليل هادئاً ولكنها بعد قليل فتحت جفنيها وتمتمت :

ـ « لقد انتهى كل شىء أوصلنى الآن إلى الدار »

كنت فى أشد الحيرة حينما استأنفت السير ووصلنا إلى حدود غابة فسرت على الطريق التى تجتازها وفيما صرنا فى قلبها ضغطت أورنيللا على ذراعى وقالت « هذا هو المكان الذى سأنزل فيه » .

أجلت نظرى فى المكان الرهيب فوجدته ساكناً قد خيم عليه صمت عجيب ولم يكن بإمكانى أن أرى إلا أشباح الأشجار فقلت :

ـ « أفهمينى يا صغيرتى كيف يمكننى أن أتركك فى منتصف الليل وحيدة فى هذه الغابة ؟ »

فأجابت الفتاة بصوت عاد إليه هدؤه :

ـ « لا شىء يخيفنى بعد الآن ، تذكر الوعد الذى قطعته على نفسك إنى أقطن هنا ويجب أن تغادرنى . »

كان يصعب علىّ أن أطيعها بيد أنى لم أجرؤ على مخالفتها وفيما كانت تبتعد سألتها :

ـ « هل أحضر لرؤيتك غداً ؟ »

فتلفتت برهة وضحكت ضحكة آلمتنى وقالت :

ـ « غداً ؟ نعم غداً »

وتوارى شبحها النحيل عن نظرى بين الأشجار ، وبقيت مدة بلا حراك متردداً ثم تنبهت لما أقدمت عليه من الجنون وقلة التبصر وانطلقت راكضاً وأنا أصيح « أورنيللا ، أورنيللا ! »

فلم تجبنى إلا حركة أجنحة الطيور الليلية الهادئة وكأنها مراوح الليل .

ناديت مرة أخرى هذا الاسم الذى تنقل بلا جدوى من فرع إلى فرع . . . ثم أجابتنى صيحة مشؤومة ، فإذا هى صيحة بومة أفاقت من نومها وأخذت ترشقنى بنظرها الباهت .

عدت فى اليوم التالى مسرعاً إلى الغابة . لم تتعذر علىّ معرفة المكان الذى وقفت فيه البارحة . فترجلت من عربتى وسرت على الدرب . وبعد قليل تراءى لى كوخ صغير بين الأشجار ، لا بد أن تكون الفتاة الرهيبة ساكنة فيه .

طرقت باباً خشبياً كبيراً ففتحته عجوز مرتدية ألبسة الحداد ونظرت إلىّ باستغراب ، الأمر الذى جعلنى أظن أن هذه العجوز الوحيدة

قلما يزورها أحد . فقلت لها :

ـ « أتيت من أجل الآنسة أورنيللا »

فرمقتنى بنظرة جافة بعد أن هزت كتفيها باضطراب ، فاستأنفت كلامى :

ـ « أرجوك ، دعينى أراها لحظة ، لقد أوصلتها مساء البارحة إلى هنا . »

وبقيت العجوز تحدق بى وجلة خائفة ثم قررت أن تجيبنى فقالت برقة حزينة :

ـ « تعال » ويا لهول المفاجئة حينما تبعتها فى الحديقة ورأيت قبراً تحيطه أزاهير الحقل . ركعت الجدة وسالت دموعها الصامتة على الطريق الذى شقته فى سيرها المعتاد على خديها . أما أنا فقد بدأت أفكّك العبارات التالية المحفورة على شاهدة القبر :

« هنا ترقد أورنيللا ج . توفاها الله فى الخامس والعشرين من شهر ايار عام ١٩٤٧ وهى فى الثامنة عشرة ـ صلوا عليها »

ثم انتحبت العجوز قائلة :

ـ « إنها حفيدتى ، ماتت على أثر اصطدام سيارة فى مفترق طرق الغابة وذلك حينما كانت ذاهبة لحضور حفلة ساهرة راقصة الحفلة الأولى فى حياتها . »

ضحكت مضطرباً وفكرت فى أمرى : ها نحن فى عام ١٩٤٨ ، فذلك يدل على أن فتاة البارحة غير الفتاة التى تدعى أورنيللا أيضاً وعدنا أدراجنا إلى الدار حزينين فقالت لى السيدة المرتدية الأسود :

— « تفضل لترتاح قليلا » .

فلم أرفض . دخلت غرفة معدة للاستقبال فرأيت صورة فتاة شابة تتصدر خواناً وكأنها العذراء وكانت تحيط وجهها المشرق ورود نضرة . . . نظرت إليها بذهول فشحب لونى فجأة . . . فقالت مضيفتى :

— « ماذا بك ؟ » فأجبتها :

— « إنها هى « الفتاة التى قضيت سهرتى معها البارحة » . . . إنى عرفت عينيها وابتسامتها وحتى صورة فمها . »

فاعترضت العجوز قائلة :

— « إنك مجنون أيها الشاب لقد ماتت حفيدتى المسكينة منذ عام . . . وكانت البارحة ذكرى موتها الأولى . ألم تر قبرها الآن ؟ ! »

— « إنها هى . . . إنها أورنيللا . . . »

وكنت أحدق بالصورة بعينين شاردتين ولكن الجدة هزت رأسها بحزن وقالت ببساطة :

— « تعال لأريك تذكاراً حفظته منها ، ثوبها الذى أعدته لحضور الحفلة الساهرة الأولى فى حياتها .

فتبعتها إلى حجرة مجاورة للمكان الذى كنا فيه . أول ما لفت نظرى هو أن الحجرة التى دخلناها ظلت مهجورة منذ شهور وأن كل ما فيها باقٍ على حاله ولم تزل تعبق فى جوها رائحة عطر خفيفة . . . كانت الجوارب الحريرية معروضة على كرسى هنا ، والحذاء الأطلسى الصغير منثوراً تحت الخزانة هناك . تقدمنا من السرير بخشوع وكان ثوب السهرة ملقى عليه منذ الليلة المفجعة ، ينتظر الجسد الفتى ليلفه بين ثناياه لأول مرة . . .

وما كان من العجوز الباكية إلا أن صلبت وصرخت تقول :

— « انظر ؟ انظر ! لم يكن شىء من هذا على الثوب البارحة . . . »

وأومأت لى بإصبعها المرتجف إلى البقع الحمراء التى لوثت الثوب الأبيض . . .

العباءة

لاندريه موروا

— « هل تعرف الشاعر النمساوى الفاتن ريسنتال (Riessenthal)

— لم أجتمع به غير مرة واحدة وإنى لأ ذكر أنه تكلم عن روسيا فى ذلك اليوم ببساطة ورهبة فيها كل الروعة . . . كانت تطغو على أقاصيصه غمامة خفيفة تضفى على الأشخاص الذين كان يصفهم أشكالا مبهمة وصوراً مبالغاً فى إنسانيتها . . . وحتى صوته فقد كان غريباً وكأنه مبرقع . . . أجل ، إنه لصحيح أنى لم أره غير مرة بيد أنى بتّ أحبه أكثر ممن أحب من الرجال الذين عرفتهم فى حياتى . . . وبعد اجتماعى به ببرهة وجيزة علمت نبأ وفاته — بحزن ، ولكن دونما مفاجأة لأنه لم يكن يشبه الأحياء إلا قليلا . . . ومنذ ذلك الحين التقيت بأصدقاء لريسنتال أثناء رحلاتى إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا . . . فكانوا تارة رجالا وأخرى نساء ملأ حياتهم وكوّن فكرهم ، ولم يزالوا حتى اليوم يمتازون بالرقة والحساسية على غيرهم من الناس . »

— « إنى مسرور بما تقوله لى لأنى كنت صديقاً لريسنتال . وأنا مثلك تماماً رأيته مدة ساعة فى إحدى الأيام ولم أستطع نسيانه . ومنذ

ثلاث سنين تذكرنى وهو يجتاز بلدى فى أوائل الخريف فكتب إلى ثم أتى لقضاء نهار معى . كان الجوّ يومئذ بارداً ، وأنا أقطن على سفح الجبال الشاهقة ، فانزعج ريسنتال لأنه لم يحضر معه ثياباً دافئة وهو الإنسان الهزيل ، السريع التأثر من البرد ، وقال لى : ألا تستطيع أن تعيرنى معطفاً ؟ وأنا ، كما ترى ، أطول قامة وأكثر بدانة من صديقنا ، فذهبت وأتيت له بعباءة بنية تعودت أن أرتديها حينما أذهب للصيد فى الشتاء . فابتهج ريسنتال بها وأرانى كيف أنه يستطيع أن يتزمل بها عن طاقين لوساعتها ، هكذا سار معى طويلا تحت الأشجار وهو ملتف بعباءتى . لقد أعجبته دارى كثيراً فى ذلك اليوم وكذلك حديقتى والأشجار المجللة بالأوراق المحمرة والجبال الشامخة التى تحيط بنا ، كما أعجبته كثيراً فى المساء نار الحطب فى موقدتى حتى قرّر أن يبقى معى يوماً آخر . . . وفى الليل مدّ العباءة البنية فوق السرير ثم عاد ولبسها فى صبيحة اليوم الثانى وجلس يكتب . وفى المساء أخبرنى أنه لا يرغب مطلقاً فى الرحيل ، وكنت من جهتى أتمنى أن أحتفظ بهذا الشخص الممتع الفريد أطول وقت ممكن . وهكذا توالت الأيام وقضى عندى أسبوعين ملتفاً بعباءتى . وأخيراً عزم على السفر وغادرنى بعد أن خلّف لى قصيدة تذكاراً لإقامته . وبعد أشهر من هذه الزيارة بلغنى نبأ موته .

وفى الخريف الذى تلى وفاته سعدت بزيارة ثانية من هذا النوع وهى زيارة كاتب فرنسى كنت قليل المعرفة به ولكنى كنت أحب أسلوبه المصقول الشفاف . وكان هذا الكاتب يريد قضاء يوم واحد فى مدينتى الصغيرة وهو فى طريقه إلى فيينا . كان حديثنا ونحن على مائدة الغداء ، متعباً شاقاً . فخيل إلى أن الصداقة التى كنت أبتغيها أصبحت بعيدة المنال ، وأننا لن نتفاهم مطلقاً لوجود اختلاف كبير فى آرائنا وطبائعنا ، ثم فهمت وأنا أشعر بالحسرة أننا سنتفارق بدون أن نأتى على ذكر شىء مخلص أو عميق . وبعد الطعام ذهبنا نتنزه تحت الأشجار المصفرة فشكى الرطوبة فأحضرت له عباءة ريستال .

إنه لأمر غريب جداً ولكن ضيفى تغير حالا وتبدل منذ أن وضع العباءة على منكبيه . فإن فكره الذى كان سديداً فى الأصل وأحياناً لاذعاً ظهر فجأة وكأنه ملفوف بغلالة من الحزن . وأصبح هذا الإنسان رقيق القلب يميل إلى كشف النقاب عن أسراره . وعند ما أرخى الليل سدوله توثقت عرى الصداقة بيننا . وكما حصل سابقاً — لريستال فقد بقى عندى زائر الخريف الذى أتى لقضاء يوم واحد أسبوعين كاملين .

وإنك لتتخيل بعد ما حصل أن العباءة أصبحت لدىّ بمثابة غرض ثمين للغاية له قدرته الرمزية المفيدة . وإن كنت فى قرارة نفسى لا أعتقد كثيراً بمثل هذه الأمور .

وفى الشتاء الذى تلى ذلك الخريف ، وقعت فى حب فتاة رائعة الجمال من فيينا ، انكبورج دو ديتريش . Inge borg De Dietrich كانت تنبثق من أسرة عريقة ولكنها مفلسة ، فكانت تعمل عند ناشر لتكسب قوتها . عرضت عليها الزواج بيد أنها كانت متعصبة لحرّيتها مثل الفتيات اللواتى نشأن بعد الحرب ، وقد صرحت لى بأنها لا تستطيع احتمال فكرة الارتباط بالزواج بعد أن جعلتنى أشعر بأنى أعجبتها . ولم يكن فى إمكانى أن أراها دون أن أتألم حرة طليقة فى مدينة كبيرة ومحاطة برجال مستهترين . وهكذا عشنا بضعة شهور متعبة ثقيلة .

وفى الربيع وافقت انكبورج على أن ترد لى الزيارة فى دارى فى فينيروولد Wiennerwald وفى أول أمسية من إقامتها ، خرجنا بعد العشاء إلى الحديقة فقلت لها : « أتريدين أن تجعلينى مسروراً جداً ؟ اسمحى لى أن أضع على كتفيك عباءة أقتنيها عوضاً عن معطفك . . . أنا أعلم أنك لستِ عاطفية . . . ولا بدّ أن — رغبتى هذه تبدو لك غريبة سخيفة . . . ولكن ماذا يهمك ؟ . . . إنها أول أمسية تقتضينها عندى ، فحققى لى فيها هذه الأمنية أرجوك . » فضحكت وهى تسخر منى بلطف وبراعة كبيرين .

وهنا قطع حديثه لأن مخلوقة فاتنة اتجهت نحونا تجتاز الدرب المغشّى بضباب المساء ، وكانت ملفوفة بعباءة بنية ، فقال :

— « إنها زوجتى ، هل تعرفها ؟ »

بلا أمل

فى مسكن هادئ تضمه الأشجار ، نشأ وترعرع ونبغ سمير . كان سمير فناناً بارعاً إن لم أقل نابغة ، فلقد ولد موسيقيا وشاعراً وكان شغفه بهذين الفنين متأصّلا فى مكنون نفسه ، فنمت مواهبه مع نمو جسمه وعقله .

من ذلك المسكن الحزين ، كانت تنبعث ألحان شجية ، طرب لها الأثير ، ثم تناولتها الأسماع ، فذاعت شهرة الملحن القدير .

كان سمير وسيم الطلعة ، عميق النظرات ، بارعاً فى الحديث . إن حسن التعبير وطلاقة اللسان لمن المواهب العظيمة حقّاً ، ومما زاد فى عذوبة أحاديث سمير ، صفاء الصوت الذى كانت رناته تشبه إيقاعات كمانه السحرى . وهب سمير أيامه ولياليه للموسيقى فأصبحت كل شىء فى دنياه . كان يجد بعض الارتياح فى إعجاب الطبقة الراقية بألحانه وكثيراً من السلوى فى الرسائل الطريفة التى كانت تنهمر على منضدته من الهائمات به المعجبات بفنه . ولكن . . . ولكنه كان يشعر بعزلة أليمة . . . ودّ أبوه وأصدقاؤه إخراجه من هذه العزلة فحاولوا

دمجه فى المجتمع ثم فاتحوه بالزواج ظنًّا منهم أنه سيجد فيه الراحة والاستقرار ، فرحب سمير بالفكرة وبدأ يبحث عن أميرة أحلامه ، عن الشريكة التى كان يسميها « الروح الشقيقة » . إنه يعرف عدداً كثيراً من فتيات جيله ، بل لقد أخضع الكثيرات لسلطان الفن بعذب ألحانه ، بيد أنه وقع فى حيرة الانتقاء : من يختار منهن ؟ بل من التى تصلح لتكون زوجة له ؟ هنالك ليلى وسعاد وناهد وغيرهن ، غير أنه وجد لكل واحدة علة . وأخيراً تعرف بفتاة أعجبته ، فدفعه نصح ذويه وأصدقائه لطلب يدها ، وتزوجا بعد شهر واحد من اللقاء الأول .

انقضى شهر العسل وقطنا فى دار لطيفة برهنت ناديا على أنها قادرة على إدارتها بمهارة . كانت زوجته فتاة جميلة ، كريمة المنبت ، عالية الثقافة ، ولكنها . . . ولكن ناديا لم تكن الروح الشقيقة التى اتخذها سمير عروساً لموسيقاه . . . يا لسمير من تعيس سيء الحظ ! لأنه بدأ يشعر بظمأ لمالى شىء لم يحصل عليه بعد الزواج ، بعطش إلى أشياء وأشياء شأن كل فنان فى حياته الخاصة ، فانطوى على ألمه وعاد إلى وجهه الشحوب . . .

مرت الأعوام وصار سمير أبا لولدين غير أنه ظل حزيناً ظمآنَ ! عجب لأمره أصدقاؤه ، وعجب هو من نفسه ، وكثيراً ما كان يتساءل ويقول : « لمَ يا ربى أشعر بالوحدة تحت سماء دارى العامرة ؟ ما الذى

ينقصنى ولدىّ زوجة طيبة ، وطفلان ومائدة تحوى ما لذّ وطاب ؟ فكيف الاهتداء لتعليل هذا الاكتئاب ؟ ؟ حاول سمير أن يتناسى هذا الشعور بالنقصان بيد أنه لم يفلح . ألم تكن الأوهام الخبيثة مبعث كدره ؟ لا ! لا ! إنه يشعر بحاجة إلى شىء مجهول لم يهتد لمعرفة كنهه ، وكان من أجله يبكى ولكن بغير دمع ، ويشكو ولكن . . . من غير ألم . وفى حالة القلق هذه لحن معزوفته التى سماها « بلا أمل » وهى قطعة حزينة لا يستطيع أحد أن يسمعها دون أن يبكى إلا من كان قلبه قد قُدّ من الحديد . تتمثل فى هذه القطعة أسمى الإحساسات الإنسانية ، فهى مجموعة صرخات أليمة وصلوات حارة تجمع بين القوة واليأس ، ويخيل إلى السامع ، فى نهاية المعزوفة ، أن هذه الصلوات قد حظيت بالإجابة من الخالق المبدع . إن معزوفة « بلا أمل » لغة كل روح معذّبة ، ولسان كل قلب مكلوم . ولا تسل عن أثرها فى دعم شهرة هذا الموسيقار .

* * *

عزف سمير قطعته الرائعة من محطة الإذاعة ، وأقيمت على شرفه الحفلات . كان يعتذر ويحاول التهرب من أكثر هذه الدعوت ، حينما دعى فى مطلع الصيف لحضور حفلة ميلاد الآنسة رنده ، شقيقة صديقه فؤاد . وعد أن يحضر لما سمع منه عن شغف أخته بالتصوير

والموسيقى ، ولأن فؤاد من أعزّ المقربين إليه .

كانت رنده فى الواقع تهتم كثيراً بالفنون الجميلة ، وتكره موسيقى « الجاز » والحفلات الراقصة التى تجمع بين اللهو الرخيص والشراب . أما إعجابها بسمير وألحانه فهو إعجاب فنان بفنان . ولما علمت أنه سيحضر حفلة عيد ميلادها التاسع عشر أخذت تقفز على الأرض فرحاً وتقبل أخاها فؤاد وتقول :

— « لك ألف شكر يا فؤاد ! إن مجىء الفنان سمير يوم عيدى هو أثمن هدية سأنالها هذا العام . ولكن ، أتوسل إليك أن لا تقدمنى إليه عازفةً على الكمان ، لأن ذلك قد يوقعنى فى الاضطراب . »

فأجابها فؤاد بهدوء :

— « لِمَ لا يا رنده ؟ هل من دواعى الخجل والاضطراب أن تكونى موسيقية ؟ إن سمير يعلم أشياء وأشياء عنك ، وهو مبتهج بمعرفتك . واعلمى من الآن أنك ستعزفين أمامه قطعته الحديثة « بلا أمل . »

— « لا ، يا فؤاد ! لا تطلب منى أن أعزف قطعة جديدة أمام واضعها . أنا على يقين أن عزفى سيكون أمامه رديئاً . فأرجوك أن تترك لى هذه المرة لذّة التعرف إليه وأعدك أن أسمعه عزفى على الكمان فيما بعد . » فأجاب فؤاد مبتسما وكان فخوراً بأخته ومواهبها :

— « سنرى يا عزيزتى . . . سنرى . »

انتظرت رنده يوم عيدها على أحرّ من الجمر ، لتنعم فيه بمصافحة الفنان الكبير الذى عرفته من خلال ألحانه ومما قرأت عنه وسمعت . دقت الساعة السادسة يوم الحفلة وسمير لم يحضر ، فشعرت رنده بمضاضة الخيبة ، خيبة الأمل الكبير الذى غذته بروحها وأمانيها طيلة أيام أربعة ، وبدت أمام المدعوين غائبة عن الوجود حائرة . . . لم يطل قلق رنده إذ أنبأها تصفيق حاد بدخول الفنان سمير . وجهت نظرها نحو المدخل فرأت سيدةً أنيقة يتبعها شاب نحيل ، على وجهه مسحة الهيبة والوقار ، فتقدمت والدتها نحوهما مرحبة وقد أمسكت يدها ، وقدمتها للفنان بهذه العبارات :

— « أقدم لك يا أستاذ ابنتى رنده ، إحدى المعجبات بفنك السامى ، وهى تجيد عزف بعض مقطوعاتك على ما أظن . »

فأجاب سمير وهو يصافحها .

— « لى الشرف أن أتعرف بك يا آنسة ، ولى طلب أرجو أن يلقى منك القبول ، وهو أن أسمعك تعزفين على الكمان هذا المساء . »

— « بكل سرور ، ولكن ، بعد ذهاب المدعوين إذا سمحت . »

هكذا أجابته رنده وهى تنظر إلى الأرض خشية أن تقع عينها على محياه النضر ، ثم سلمت على زوجته وعادت إلى صديقاتها مضطربة . ولم الاضطراب ؟ لأنها رأت الآن رجل أحلامها فحق لها أن تشعر

بالرعشة والاضطراب . . . وكذلك سمير . . . إنه لم يهتز لرؤية رنده فقط ، بل افتتن بجمالها الطاهر ببريق عينيها المخمليتين ، ولم ينسحب فى المساء المتأخر إلا بعد أن أسمعهم بعض معزوفاته وبعد أن سمع قطعة « بلا أمل » وقد عزفتها له الموسيقية الناشئة بمهارة . لقد أدهشه عزفها المنسجم الرخيم ، وكان إعجابه كبيراً بقوة سمعها لأنها استطاعت أن تذكر مقاطع معزوفة طويلة مثل : « بلا أمل » ولم تكن قد أذنت لها غير مرتين من محطة الإذاعة .

قدّم سمير تهانيه للفتاة وذويها قبل مبارحة الدار واقترح عليهم أن يأتى بنفسه مرتين كل أسبوع لإعطائها عشرة دروس تكميلية فقط . فقبلت الأسرة الاقتراح شاكرة واعتبرته شرفاً كبيراً لها . أما رنده ، فقد عزمت على مضاعفة جهودها الموسيقية لتحوز على إعجاب سمير ورضاه ولم تكن تعلم أنها : « الروح الشقيقة » التى طالما نشدها وتغنى بها ...

هيمنت على جو الدروس مودة صادقة جذبت الفنانين وأنستهما نفسيهما ومرور الساعات ، وقد اضطرت والدة رنده أكثر من مرة أن تدخل عليهما لتنبئهما أن الساعة قد تجاوزت الواحدة وأن وقت الغداء قد حان .

وفى ذات صباح ، جاء سمير كالمعتاد يفيض حيوية ونشاطاً ، وبعد انتهاء الدرس السابع الذى حاول أن يجعله قصيراً ، أخذ بيد

تلميذته الساذجة ولثمها بشوق وحنان . حارت رندة فى أمرها، بل ذعرت لهذه البادرة المفاجئة من أستاذها ، غير أنه بدأ يصور لها لواعجه ويقول بصوت متهدج :

— « يا معبودتى رنده ! لا أستطيع أن أخفى عنك أمر حبى العظيم فقد استسلمت له . يا عروس شعرى ومعين وحيي وإلهامى ، منذ اليوم الذى عرفتك فيه شعرت بأنى بُدّلت عقلا وروحاً ، بأنى خلقت خلقاً جديداً ، فكيف يمكننى التفكير أن دروسنا ستنتهى قريباً ؟ أتريدين أن نمددها ؟ لا ترفضى بربك يا رنده ! »

شدهت الفتاة وظلت رابضة فى مكانها بلا حراك ، ثم سحبت يدها من يد سمير بهدوء وبعد أن ابتعدت عنه قالت وقد أصابت صوتها بحة التأثر :

— « ماذا تقول يا أستاذ ؟ تريد أن نمدّد الدروس من أجل اللقاء ؟ وبعد ذلك ؟ إنك بعيد عن الحقيقة ، فى عالم الأوهام . ألا تفكر فى زوجتك ؟ هل نسيت أطفالك ؟ إنى أحبك وأقدرك كثيراً ولكن . . . ولكن بغير المعنى الذى تفهمه . . . »

ثم قالت بلهجة أقل عنفاً :

— « أظن أنك تعب هذا الصباح ، فأرجو أن تذهب لتستريح وإلى يوم الأربعاء إذا شئت » .

– سآتى الأربعاء دون شك ، وأرجو أن لا تكونى هكذا قاسية معى . فكرى قليلا يا رندة وسامحينى إذ تسرعت بهذا الاعتراف . لم يكن بوسعى أن ألزم الصمت وأنا إلى جانبك فى حين أن شيئاً ثقيلا كان يضغط على صدرى. سامحينى يا ضالتى المنشودة وإلى اللقاء القريب».

تبعت رنده أستاذها حتى الباب الخارجى ثم صعدت إلى غرفتها لتفك أسر دموعها وقد كبحت جماحها أمامه . . . كانت رندة هائمة بحب روح الفنان سمير . ليته ظل صامتاً وامتدت بهما العشرة بلا تصريح وكلام . إنها تكتفى برؤيته وسماع صوته والشعور بمودته ، فهذا جل ما تطلبه ممن أحبت وهامت به إذ لا سبيل للعيش معه . ولكن اعترافه أساء إليها وجعلها تنفر منه . إن رنده خيالية فى حبها ، شأنها فى ذلك شأن أكثر الفتيات المصونات . ولئن كانت عصرية فى لباسها وأسلوب حياتها ، بيد أنها فى الواقع رزينة متحفظة ، تمقت هذا النوع من الحب الذى يقود إلى ما لا تحسن عقباه .

وفى العاشرة من صباح الأربعاء استقبلت الخادمة سمير وسلمته رسالة وقالت له :

– « لقد سافرت الآنسة رنده البارحة مع والديها » .

أخذ سمير الرسالة بيد مرتجفة وفضها فى الشارع ليقف على سبب هذا الرحيل المفاجئ ، وهذا نصها :

أستاذى العزيز :

كان لزاماً على أن أغادر المدينة لبضعة أسابيع من أجل سعادتك وسعادتى ، وكأنى أسمعك تقول : « أنت لا تفهمينني يا صغيرتى رنده ، فإن سعادتى ملك يديك . » ولكن ، ثق بأنى أفهمك تماماً وأنا أعلم أن سفرى هذا سيؤلمنى ويؤلمك ولكن الأيام ستلعب دورها المخدّر وسترى .

إن تمديد دروسنا لو تمّ ، لقاد حتما إلى تحطيم سمعتى التى أحرص على المحافظة عليها نقية طاهرة ولأدى أيضاً إلى انهيار هنائك العائلى ، وهذا ما لا أرتضيه لك ولزوجتك . والآن ، أغادرك مقدمة خالص شكرى للساعات الطيبة التى قضيتها برفقتك .

تلميذتك البارة

« رنده »

وهنا طوى الطفل الكبير الرسالة التى حطمت قلبه ، وعاد إلى داره خائباً لأن حبه الأول والأخير ظل هكذا ، إلى الأبد ، بلا أمل . . .

احتيال

لكل مدينة حى أنيق تقطنه الطبقة الراقية المثرية ، وحى « الصنائع » فى بيروت مقر الوجهاء وأكابر القوم والمفوضيات الأجنبية . ففيه الدور والقصور الغناء المحاطة بالحدائق النضرة ، وعدد قليل من الأبنية المعدة للإيجار .

قدم الوجيه العراقى مصطفى ج . العاصمة اللبنانية فى خريف عام ١٩٤٧ مع زوجته وحاشيته بناء على إشارة أطبائه ، فاستأجر داراً رحبة فى حى الصنائع ليقضى فيها ستة أشهر للاستجمام . فانخرط فى مجتمع أسر بيروت الراقية بعد مدة وجيزة من سكناه ، وكانت الصحف قد كتبت ترحب بمقدمه ، ولا غرابة بأن تكون الألسن قد تناقلت أخبار مصطفى بك الخاصة والعامة ، فمن الناس من قال إنه يملك عقارات بمبلغ مائة ألف دينار ومنهم من أكد أن مجوهرات زوجته تقدر بمبلغ عشرين ألف دينار ، ومنهم من رثى لحاله لحرمانه من ورثة نجباء . . . إلخ . . . من هذه التعليقات والثرثرة التى لا تخلو منها بيئة شرقية مهما سمت مكانتها ومهما اكتملت ثقافة أفرادها .

وبعد حوالى ثلاثة أسابيع من مقدم مصطفى بك إلى بيروت ، كان وزوجته الشابة ينتظران أسرتين من الجوار كانتا على موعد لزيارتهما . وما أن بلغت الساعة السابعة مساء حتى قرع الباب ودخل الزائرون . كان عددهم خمسة ولكن شاباً وسيم الطلعة أنيقاً قد انضم إليهم على سلم الدار ودخل فى مؤخرتهم بهو الاستقبال ، فحسبوه من أصدقاء أهل البيت وحينما دخلت السيدة صبيحة مع زوجها لاستقبال الضيوف حسبت أن هذا الشاب فى عداد جيرانها . . . كانت السيدة صبيحة سمراء تذوب لطفاً وتواضعاً ، فتبادلت مع زائراتها كلمات المجاملة المعتادة وأبدت إعجابها بثوب السيدة هيلين وسألتها أين تخيط أثوابها فأجابتها عند (دجينى ومدام روزين) ، والسيدة هيلين هذه زوجة مزارع وتاجر لبنانى كبير يدعى شارل ك . ومن أجمل سيدات بيروت وأكثرهن أناقة وهى تقطن الدار الفسيحة المجاورة لدار السيدة العراقية .

أخذ الرجال يتحدثون عن أخبار الساعة السياسية والاقتصادية ، وكان مصطفى بك مغتبطاً بضيوفه فحدثهم عن التحسن الكبير الذى طرأ على صحته فى بيروت .

أما الشاب الغريب الذى دخل متطفلا دون أن يشك أحد فى أمره فكان يتكلم برصانة ويبدى آراءه فى السياسة والتجارة ويخاطب صاحب الدار براحة وكأنه صديق له منذ أمد بعيد .

وفيما كانت السيدة صبيحة تقدم المرطبات لزوارها قالت لها السيدة هيلين :

— « يا للسوارين الذين فى معصميك ما أجملهما ، صدقى أننى لم أر قبل الآن أدق منهما صنعاً ولا أجمل تناسقاً » .

فأجابتها صاحبة الدار شاكرة :

— « لقد ابتاعهم لى مصطفى فى العام الماضى من مدينة فلورانس ، وإنهما فعلا من أعز القطع التى أقتنيها وأحبها إلى قلبى . »

ونظرت إلى زوجها وابتسمت ، فعلم الحاضرون فيما بعد أن هذين السوارين هدية مصطفى بك لزوجته بمناسبة عيد زواجهما العاشر . وهنا تحمس السيد شارل . ك . وقال باشًّا :

— « يا لغرابة التصادف ، سيكون عيد زواجنا العاشر بعد شهر أو ما يزيد وأنا أفكر فى تقديم قطعة ماسية لهيلين تعجبها ، ولكن أنى لى بالذهاب إلى فلورانس الآن ، وموسم أعمالى فى عنفوانه ؟ . . »

فقالت السيدة صبيحة تخاطب جارتها الثرية :

« لا مانع عندى يا سيدتى إذا ما صنعت مثل سوارى ، ولا ريب بأن صائغك يستطيع تقليده إذا ما رآه مرة » .

غمر البشر وجه السيدة هيلين . ك . وأجابت : « أشكرك كثيراً سأفكر فى ذلك واعلمى منذ الآن أن صائغى لن يسبك أكثر من سوار

على شاكلة سوارك إذا قررت أن أصوغ مثله . »

وهكذا تمت المناقشة حول السوار بوجود ذلك الشاب الدخيل ذو الأمر المريب . . . كان ينظر إلى السوارين نظرة الخبير المطلع ، وكان السواران ثمينين جميلين ، يتألف الواحد منهما من ستة قباب ماسية تعلو كل واحدة منها زبرجدة متوسطة الحجم ، وكان جمالها بدقة صنعهما وبريق أحجارهما الصافية . وعند ما انتهت الزيارة نهض الجميع ومشى صاحبا الدار يودعان ضيوفهما حتى الباب وكان رياض الشاب الدخيل ، آخر من ودع مصطفى بك ، ثم لثم أنامل السيدة صبيحة باحترام وعاد من حيث أتى . . .

كان رياض رئيس عصابة احتيال خطرة مؤلفة منه ومن أخيه الأصغر وفتاة أرمنية متعلمة حسناء كانوا يختلسون أموال الناس بأسلوب راق جديد دون أن يشك أحد بأمرهم لحسن منظرهم وإتقانهم اللغتين الفرنسية والانكليزية . سمع رياض بمقدم هذه الأسرة العراقية الغنية ، وهو ذو الأذن الحساسة التى تسمع ما لا يسمعه الغير أحياناً . . . فبدأ بمراقبة البيت وأخذ يفكر بانتهاز الفرصة المناسبة للدخول بشكل طبيعى لكى يرى أصحاب الدار وبعض ما يستطيع رؤيته من مجوهرات الزوجة السعيدة .

ولما شاهد السيد شارل ك . وزوجته يدخلان مع أصدقائهم لزيارة الأسرة العراقية ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة الفوز ، وكان وقتئذ يتمشى فى الحى على بعد عشرين متراً من الدار ، فأسرع فى مشيته ليلحق بهم

ويدخل فى ركابهم .

وحينما خرج رياض من دار مصطفى بك ، لم يطل التفكير فى الطريقة التى ستوصل السوار الثمين إلى يديه النهمتين ، لأن الحيلة ارتسمت أمام مخيلته منذ أن كان جليس الوجهاء والأثرياء . . .

انتظر رياض مضى أسبوع على الزيارة ، فاجتمع بشريكته الآنسة مارى ولقنها الدرس بعد أن أحضر لها اللباس المناسب والنظارات الكاذبة ثم دلها على البيت وجلس فى مقهى طانيوس ينتظر عودتها . وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر .

عادت مارى بعد نحو من ساعة ووجهها باسم وفى نظراتها بريق قوى ، فنهض رياض وذهبا معا إلى داره . وما أن أغلقا الباب وتأكدا أنهما فى مأمن من الرقباء حتى فتحت المحفظة التى كانت تحملها وأمسكت بالسوار وقالت .

— « طرقت الباب وطلبت أن أكلم السيدة حرم مصطفى بك فجاءت وسألتنى عما أريد فقلت لها بالإنكليزية إننى مربية أنجال السيدة هيلين . ك . وبعد أن أبلغتها تحياتها وتحيات السيد شارل ، سألتها فيما بعد إذا كانت تسمح بإعارة سوارها لمدة نصف ساعة لأن صائغ سيدتى فى الدار جاء لينقل رسم السوار لكى يصنع مثيله لها . فأجابتنى تلك الساذجة بحرارة أنها ستحضر السوار بكل سرور وأدخلتنى غرفة صغيرة ، فلم يطل انتظارى

لأنها قدمت مسرعة وأعطتنى السوار وكلفتنى أن أبلغ السيدة هيلين خالص تحياتها . فشكرتها وأكدت لها بانني سأعيده لها بنفسى بعد نصف ساعة وانصرفت . »

ثم أضافت تقول : « لا أسلمك السوار حتى تدفع المبلغ المتفق عليه » . فأخرج رياض من جيبه كدسة أوراق نقدية وأعطاها لشريكته وحبيبته مع قبلة طويلة واستلم الغنيمة فرحاً جذلاناً . وفى المساء قضوا السهرة فى حانة الكيت كات وكان أخوه حاضراً ، فشربوا نخب النجاح واقترح أخوه عارف أن يغادروا لبنان إلى مصر لقضاء الشتاء فيها قبل أن تفوح رائحة الاحتيال . ولكن رياض ضحك ملء شدقيه ضحكة كلها اعتداد بالنفس وقال هازئاً من جبن أخيه :

ـ « لا يمكننى أن أغادر بيروت قبل أن أحصل على السوار الثانى ، وإن لم أفعل فأنا لست رجلا جديراً بالحياة . أما أنت يا عزيزى الصغير فلن أطلب منك معونة ولك أن تنتظر هادىء البال ، كما أن وظيفة مارى قد انتهت فى هذه القضية وليس عليكما إلا أن تعيشا برفاه ريثما أتم مهمتى وبعدها سنذهب إلى مصر حيث أتزوج مارى وأفتش لك على عروس تليق بك يا عارف . »

* * *

انتظرت السيدة العراقية عودة المربية دون جدوى وقالت لنفسها ربما

تعود فى الليل . . . ولكن . . . انقضت الليلة الأولى وعقبتها الثانية والسيدة صبيحة قلقة تارة وواثقة من جارتها أخرى ولكن ، الاضطراب كان يتغلب على الثقة فتضرب المسكينة أخماساً بأسداس ، إلى أن فاتحت زوجها فى الأمر . وكانت لبلاهتها قد نسيت أن تذكر له الحادث . استغرب مصطفى بك وقوع هذا التأخير فى إعادة السوار ثم أرسل خادمه ليخبر السيد شارل وزوجته أنهما قادمان مساءاً لرد زيارتهما.

استقبلتهما السيدة هيلين وزوجها بترحاب وسرور ثم جلسوا يتبادلون أطراف الحديث فلم تأت الجارة الكريمة على ذكر السوار ، فقالت السيدة صبيحة بلطف :

— « أرجو أن يوفق صائغك يا سيدتى إلى تقليد سوارى ، وهل انتهى من رسمه ؟ »

فقالت السيدة هيلين متعجبة مستغربة :

— « أى سوار تعنين يا سيدتى ؟ إنى لم أحاول ذلك مطلقاً . بل قلت لشارل إنى أحب اقتناء عقد لطيف سيشتريه لى بمناسبة عيد زواجنا ؟

فأجابت العراقية مندهشة :

— « ألم ترسلى مربية الأطفال إلى دارى أول أمس قبيل الغداء لكى تأخذ السوار ؟ لقد أتت وقالت لى إن صائغك عندك فى الدار أحضره السيد شارل لينقل رسم سوارى ، فسلمتها إياه ووعدتنى أن تعيده

لى بعد نصف ساعة ولكنها لم تعد » .

وهنا بهتت السيدة هيلين وجن جنون زوجها من الحادث المشبوه وناديا مربية أنجالهم لتحكم ضيفتهما فيما إذا كانت هى التى أخذت السوار ، ولكن السيدة صبيحة قالت :

— « كلا يا سيدتى ! إن مربيتكم كهلة بدينة والفتاة التى أخذت السوار باسمك شابة تضع نظارات ونحيلة جداً » .

ولا تسل بعد عن اضطراب السيدتين واستغراب مصطفى بك واستنكار السيد ك . للحادث وقد تذكرت السيدة هيلين أنها كانت أول أمس مع أولادها ومربيتهم فى شتورا خارج المدينة .

وما كان من السيد شارل إلا أن أخبر البوليس عن الحادث واستدعى إلى داره أحد كبار موظفى الشرطة والأمن ليأخذ من السيدة صبيحة أوصاف الفتاة التى ادعت أنها مربية أطفاله وأوصاف السوار .

وفى اليوم التالى نشرت الصحف المحلية خبر الاحتيال وأخذت الحكومة جميع الاحتياطات للقبض على المحتالة .

انقضى شهران على الحادث كان رياض خلالهما يقرأ الجرائد ويضحك ضحكة المنتصر الذى ينتظر حلول الفرصة الثانية لينتهزها ويضيف إلى نصره الأول نصراً ثانياً أكبر شأناً وأعظم دهاءاً . . . كان رياض واثقاً من نجاحه كل الوثوق وقد أقسم لعشيقته مارى أنه إذا لم يحصل على السوار الثانى ليس خليقاً بأن يتزوجها وأن يكون رجلا يتمتع بالحياة .

كما أنه لم ينس أن يصبغ لها شعرها الأشقر صبيحة الحادث باللون البنى وأن يخلع لها النظارات الكاذبة ويبعدها عن بيروت بعض الوقت .

وفى مطلع الشهر الثالث الذى تلا الاحتيال الشنيع ، فى يوم ماطر مظلم ، طرق باب السيدة العراقية وكان الطارق شرطياً يطلب محادثتها بأمر هام . فقدمت السيدة صبيحة مستبشرة وسألته عما يريد وقلبها ينبض بالفرح فقال :

— « أنا رئيس مخفر رأس بيروت جئت أبلغك بأن قسم التحرى عندنا قد عثر على سوار ماسى ثمين فى دار مشبوهة هذا الصباح ، وقد ألقينا القبض على المحتال وشركائه وبينهم فتاة فى الخامسة والعشرين ، نحيلة شقراء ، مصابة بقصر النظر . فذهب سعادة مدير الشرطة الذى أخبرناه باكتشاف العصابة إلى فندق النورماندى حيث يجلس عادة زوجك الفاضل قبل الظهر وجاء بمعيته إلى مخفرنا حيث رأى السوار وصرح بأنه سوارك . ولكننا يا سيدتى لا نستطيع تسليمه حتى نتأكد من أنه لم يسلب شيئاً من أحجاره وأنه هو بعينه ، لنضع التقرير الوافى عن ذلك ، فأرسلنى زوجك مصطفى بك . ج . إلى هنا لكى آخذ سوارك الثانى مثيل الأول لنقابلهما ونسلمهما إليه فيما بعد » .

تلعثمت السيـــدة صبيحة بالكلام وهى تشكر رئيس المخفر

وجهود الحكومة وأسرعت إلى خزانتها ففتحت درج المجوهرات وعادت إلى رئيس المخفر بأسرع من البرق وسلمته السوار الثانى شاكرة مسرورة ! ! ولم يكن رئيس المخفر هذا إلا المحتال رياض مرتدياً بزة شرطىّ . . .

بعد عشر سنين

لاندره موروا

– هل تعلم يا برتراند ، من خابرنى هذا الصباح ؟

– وكيف تريدين أن أعلم ؟

– كان يجب أن تنبهك الغريزة . . . خابرتنى امرأة أحببتها كثيراً .

– وهل يوجد فى العالم امرأة أحببتها كثيراً سواك ؟

– يا لك من عاق يا برتراند . . . وبياتريس ؟

– أى بياتريس ؟

– أى بياتريس ؟ . . . إنك بارع فى التمثيل . . . ألا تذكر بياتريس دوسولج ؟

– آه بياتريس دوسولج . . . كنت أظنها فى الصين ، واليابان ، الله يعلم أين . . . أليست فى جولة حول العالم ؟

– لقد دارت . . . ووصلت ميناه الهافر البارحة مساءاً .

– ولماذا يا ترى خابرتك منذ الصباح ؟

– لكى تجدد الصلة . . . إنه طبيعى جداً أن تود رؤية أصدقائها

بعد غياب طويل .

– كنت أجهل أننا فى عداد أصدقائها .

– برتراند . . . عند ما أفكر أننى أوشكت أن أفارقك من أجل هذه المرأة . . . أجل . . . كنت أقول لنفسى : « لماذا أتعلق به وهو لا يحرص على وجودى معه وهو فى حاجة إلى غيرى ؟ ليس لنا أولاد ، ولعل الواجب يقتضى أن أنسحب . . . »

وقابلت يومئذ صديقى لانكريه لأسأله كيف يمكننى أن أطلّق بلا ضجة أو دوى . فأصاخ لانكريه إلى حديث آلامى ونصحنى أن أتذرع بالصبر . . . ترددت طويلا واستشرت كثيراً . . . ولكن التضحية كانت جد قاسية . . . فبقيت .

– من حسن الحظ

– أجل ، من حسن الحظ . . . ولكن من الذى كان فى مقدوره أن يتنبأ بشفائك السريع يا عزيزى ؟ . . . أنسيت أنك كنت لعشر سنين خلت ، لا تستطيع قضاء ساعة بعيداً عن بياتريس ، وإنك كنت تنتظر مخابرتها الهاتفية بفارغ الصبر كل يوم ، وأنك ، لمجرد إشارة منها ، كنت تلغى أهم المواعيد ، وتحنث بأقدس الأيمان ؟ . . . آه من ذلك الرنين الصباحى . . . اننى لا أزال أسمعه . . . كان يسبب لى رعشات قوية . . . وإنى لا أزال أرى اميلي وهى تناديك بارتباك ،

إذا ما كنت فى غرفتى وتقول : « سيدى مطلوب على الهاتف . . . » فكنت تنهض مرتبكاً بدورك ، فخوراً فى قرارة نفسك . . . وكان ذلك مريعاً فظيعاً ؛

ـ أظن أنه كان بالأحرى مضحكاً . . .

ـ بلا شك . . . ولكنى كنت تعسة جداً لكى أهتم بالناحية المضحكة من الموقف . . .

تذكر يا برتران . . . كنت لا تعير اهتمامك لشىء فى الوجود ، ما عدا بياتريس . . . كانت ملامح وجهك تتغير حالا إذا ما ذكر اسمها أثناء الحديث . . . وكان منظرك مؤلماً وباعثاً للشفقة فى آن واحد . . . كنت تحب الأشخاص الذين تعرفهم ، والأشياء التى كانت تحبها . . . رأيتك أنت ، أكثر الرجال اتزاناً وبعداً عن الخرافات ، تنقلب فجأة وتهتم بالمنجمين والسحرة . . . وتصحبها إلى أوكارهم القذرة الغريبة . . . أنت الذى كنت تمنعنى من اقتناء الحيوانات ، أصبحت تقضى ساعات لتختار قطة عجمية أحبتها لتقدمها لها . . . وعلى كل حال ، فالأمر بسيط جداً لأنك كنت رهن إشارتها . . . وكانت تستطيع أن تناديك كما تنادى كلبها .

ـ إنك تبالغين .

ـ أنا لا أبالغ . . . كنت تغير برنامجك ثلاث مرات يومياً لأنها

كانت متقلبة . . . أما أوقات فراغك فكانت مرتبطة برغبتها وهواها . . . لقد صحبتنى مرة فى الصيف إلى أقصى الشمال ، أنا التى أخشى البرد أكثر من الموت لأن بياتريس كانت قد ذهبت إلى النروج على إحدى بواخر جيمس ولأنك كنت تأمل أن تجمعك المصادفة بها فتراها فى إحدى الموانىء . . . كم بكيت إبان هذه الرحلة . . . كنت متجمدة من البرد ، مريضة ، يائسة . . . وأنت لم تلحظ شىء من هذا فىّ . . . بماذا تفكر الآن ؟

ـ أحاول استعادة مشاعرى فى ذلك الحين . . . إنه لصحيح حقاً أنى كنت مجنوناً بهذه الامرأة . . . ولماذا يا ترى ؟

ـ لا تكن فظاً يا برتراند ، كانت فاتنة . . . ولم تزل .

ـ إن آلاف النساء فى باريس أجمل منها .

ـ يجوز . . . ولكن فتنتها كانت خاصة بها ، ممزوجة بالسذاجة والجد . وكانت سريعة الخاطر ، حاضرة البديهة .

ـ أتظنين ؟

ـ كنت تؤكد لى ذلك يا برتراند ؟

ـ هل كنت حكماً عادلا ؟ . . . أنى لا أعلم ماذا يجب أن أقول لها إذا ما رأيتها الآن . . . يخيل إلىّ أنها تعيش على أنقاض ذكريات صداقتنا وبضعة حكايات تذكرها من سالفياتى إن هذا لمثير !

– أتذكر يا برتراند يوم أجرى لها (جولان) العملية الجراحية ؟ كنت شاحباً من الغم والحزن . . . فأثرت شفقتى . . . وحاولت يومئذ أن أكون سامية مترفعة ، فخابرت شارع بوشينى ثلاث مرات لكى آخذ أخباراً . . . فكانت طيبة ونقلتها لك قائلة : « لا تخف يا عزيزى ليست الحالة خطرة . »

– لقد نسيت .

– يا للأسف . . . لن يبقى لأنبل عمل قمت به فى حياتى أية ذكرى . . . قل لى يا عزيزى ، أنسيت أيضاً أنك فكرت فى الانتحار يوم هربت مع سالفياتى ؟

– لم أرغب فى الانتحار طالما لم أقدم عليه .

– لقد فكرت به . . . وبدأت بتحرير رسالة لتعلمنى عن قرارك . . . ولقد أعطيتنى الرسالة فى يوم من الأيام حينما كنت تنسق أوراقك . . . أتريد رؤيتها ؟

– طبعاً لا .

– بلى ، بلى . . . ستراها . . . اسمع ، هذه هى : « عزيزتى الصغيرة ، أنا أعلم أنك ستتألمين كثيراً . استميحك عذراً . ليست لدى الشجاعة الكافية لمجابهة الحياة . ولكنى أريد ، قبل إنهاء حياتى ، أن أعلمك عن أشياء وأشياء لم تفهميها . يخيل إلى أنى سأخفف ألمك إذا ما أبنت

لك أن زواجنا كان دائماً على غير ما كنت تتخيلين .

– إيزابيل ، إن هذا ليؤلمنى .

– أتظن أنه كان مدعاة لسرورى ؟ . . . « إن سرّ موقفى الغريب منك هو أنى كنت أحب بياتريس دوسولج حينما عرفتك . ولماذا طلبتك ولحقتك وتزوجت منك ؟ لأن بياتريس تزوجت ولأنى كنت آمل أن أنساها ولأنى لمست منك عطفاً بخلت علىّ به وأخيراً لأن الرجل ليس بسيطاً وكنت أعتقد بإخلاص . . . »

– كفى يا إيزابيل . . . احرقى هذه الرسالة .

– تعودت ألا أحرق شيئاً أبداً . . . إنها رسالة بريئة . . . مفيدة لكلانا . . . وسأتجاوز صفحتين لكى أرضيك ولكن ، اسمع هذا المقطع « إن غلطتك الكبرى يا ايزابيل (لأنك ارتكبت أنت أيضاً أخطاءاً فى هذه المغامرة المؤسفة) بل أقول إن أخطر خطأ وقعت فيه هو زيارتك العجيبة لبياتريس يوم رجوتها أن تخمد نشاطى فتقصينى عنها وتعيد لك زوجك . لقد نجحت نجاحاً باهراً يومئذ يا إيزابيل المسكينة . لقد جعلت هذه المرأة الطيبة جداً فى قرارة نفسها ، تشعر بوخز الضمير ، فأبعدتيها عنى وبالتالى أبعدتينى عنك . . . ومنذ ذلك التصرف يا إيزابيل الذى جهلته طويلا ولكنى تنبأت به لأدلة كثيرة ، شعرت أن بياتريس بدأت تتهرب منى وتتجه نحو سالفياتى . وأن هذا التصرف

سيسبب موتى .

– يا لهذه اللهجة المسرحية الكريهة . . .

– لم تكن هذه الكلمات إلا مسودة للرسالة يا برتراند . . . بيد أنى أريد أن تستمع أيضاً إلى المقطع الأخير «لا تندمى على شىء . إن حياتى انتهت بطبيعة الحال ، ولم أرغب يوماً فى أن أشيخ . تلقى هذا الحادث بهدوء وصفاء كما أتلقاه أنا . سيحبك كثيرون بعدى وأنت تستحقين ذلك . سامحينى إذا قصرت عن إسعادك . لم أخلق صالحاً للزواج ، ولكنى شعرت بعطف صادق نحوك ، ولو سمحت لى الظروف أن أعيش لزاد تعلقى بك حتما مع الأيام . أضيف على ذلك كلمة : قابلى بياتريس ببشاشة إذا ما عادت يوماً وحدها أو مع سالفياتى . وإذا . . . »

– أرينى هذه الورقة . . . هل خطت يدى فعلا هذه العبارات الجنونية ؟

– أجل يا برتراند . . . أنظر وتحقق بنفسك .

– إنه لأمر غريب . . . أقسم لك أنى عاجز عن استعادة ذكرى الرجل الذى فكر فى هذه الأشياء . «لم أرغب يوماً فى أن أصبح شيخاً . . . » وها أنا الآن ، يا عزيزتى ايزابيل ، على عتبة هذه الشيخوخة .

– غاضب على الحياة ؟

ـ كلا ، سعيد بأن أشيخ إلى جانبك .

ـ وهذا ما يبرهن يا برتراند على أن الإنسان يجب ألا يموت من الحب وألا ييأس من النصر .

ـ أتعتقدين يا إيزابيل أن الأمثلة تعتبر براهين فى ميدان المشاعر ؟ كل شىء ممكن . إن خطتك التى أخذتيها مع بياتريس نجحت ، وكان يمكن أن تفشل ، وكان يمكن أن تقتلنى .

ـ يجب على الإنسان أن يغامر ، وها أنت حى ترزق . . . ولكنك لم تقل لى كيف يجب أن أرد على هذه السيدة الجميلة . . .

ـ وماذا تطلب ؟

ـ إنها تطلب رؤيتنا . . . أن تتغدى أو تتعشى معنا . . . حسبما تريد .

ـ ستحدثنا عن رحلتها حول العالم . . . بالى . . . أنكور . . . هونولولو . . . وسيكون حديثها هذا مملا للغاية . أوجدى لها عذراً .

ـ هذا مستحيل يا برتراند ، ستظن أنى حقودة . . . وعلى كل حال فإن الاجتماع بها يسلينى

ـ أى لذة تجدين فى الاجتماع بامرأة كانت سبباً لشقائك كما تقولين ؟

ـ اللذة التى تغمرنا عند ما نجد أنفسنا على الأرض اليابسة بعد

سفر شاق فى البحر . . .

إن رؤية بياتريس تزيد فى الطمأنينة التى أشعر بها حالياً ، خاصة حينما أذكر الشدائد الماضية . . . كما أننى أجد صديقتك لطيفة جداً .

– كنت تكرهينها .

– كنت أكرها حينما كانت تركض وراءك ، حينما كانت تشغل بالك وتقعد فى مكانى . . . والآن اعترف أنها امرأة ممتعة وإنه كان لك ذوقاً سليما . . . وهذا ما يسرنى .

– إنك تعلمين يا إيزابيل أنى متعب جداً الآن وإنى أتحاشى المحادثات التى لا جدوى منها ، فلا تفرضيها علىّ .

– سأتحاشى التحدث فى كل المواضيع التى من هذا النوع شرط أن تسمح لى بالكلام فى هذا الموضوع . . .

– غير أنك لن تقولى لى يا إيزابيل إنه يجب على أن أستقبل مدام دوسولج لكى أحوذ على رضاك ؟

– بلى ، يا برتراند .

DATE DUE

PJ
7842
U9
H5x

الكزبرى ، سلمى الحفار
حـرمان

NAME	STATUS

PJ
7842
U9
H5x

1976

PJ
7842
U9
H5x